وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
المركـــز الجامعـي نور البشير للبيـــــض
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الآداب واللغات

مطبوعة محاضرات مقياس: علوم القرآن

المستوى : طلبة الأولى ليسانس
تخصص جذع مشترك لغة وأدب عربي

إعداد : الدكتور/ عبد القادر حسيني
البريد المهني الالكتروني : a.hacini@cu-elbayadh.dz

السنة الجامعية : 2024-2023

المركز الجامعي نور البشير
قسم الآداب واللغات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خطة مساق مادّة : علوم القرآن

د. عبد القادر حسيني -

اسم المقياس	علوم القرآن
التخصص / السنة	جذع مشترك / السنة أولى ليسانس
المعامل / الرصيد	المعامل :01 / الرّصيد: 02

أولاً: وصف المساق

يهدف المقياس إلى التعرف على أهمية القرآن الكريم وعلومه في الدّراسة اللغوية والأدبية، وتبدأ الدراسة في هذا المقياس ببيان مفهوم القرآن الكريم، الوحي، الكتاب، المعجزة وعلاقتها بعلوم القرآن، والتعرف على تاريخ القرآن من حيثيات: نزول القرآن، التنجيم..، ومراحل جمع القرآن، وكذا مراحل ترتيب السور والآي القرآنية، ثم يصل المتعلم إلى مكونات القصة القرآنية من حيث: اللفظة، العبارة، الآية، السورة، ويتعرض بعد ذلك إلى سياقات النص القرآني؛ السياق السببي والسياق المكاني، السياق التراتبي والسّياق التداولي، وكذا التعرف على مناهج التفسير ونقدها، التفسير بالمأثور، التفسير الأدبي، التفسير البياني، التفسير بالرأي، ثم يتناول الدّارس: الإعجاز القرآني بأنواعه الإعجاز اللغوي والبياني، الإعجاز الإخباري والتشريعي.

ثانياً: الأهداف العامة للمساق

1)* أن يتعرف الطالب على مفهوم علوم القرآن وما يتصل بالتخصص.

2)* الوقوف على جهود القدامى والنهل من فضلهم الكبير في ميدان علوم القرآن، والتفقه بآثارهم والاستضاءة بأنوارهم، وتوجيه منهجهم التاريخي.

3)* خدمة الجانب الفني في القرآن الكريم من حيث تعميم الصياغة ولو وقعت الآية على سبب خاص مثلا، عرض أنماط مقاييس القدامى في ترجيح الرواية مثلاً.

4)* تحرير الرواية في ما يحتاج إلى مزيد تنقيح وتفحيص كمسألة الناسخ والمنسوخ، والتفرقة بين المكي والمدني ومسألة النسخ والتخصيص، وبين النسخ والبداءة، مسألة الإعجاز؛ والمحاولة بالانتقال فيها من الأسلوب البلاغي الضيق إلى الأفق الأدبي البديع.

ثالثاً: محتوى المساق

الرقم	الموضوع	الأسبوع
01	تعريفات، أهمية القرآن وعلومه في الدّراسات اللغوية والأدبية.	الأول
02	تاريخ القرآن: نزول القرآن، بدايات الوحي، التنجيم..	الثاني

03	مراحل جمع القرآن؛ معايير ترتيب سور وآيات القرآن (وقفية أم اجتهادية)	الثالث
04	مكونات النص القرآني: اللفظة، العبارة، الآية، السورة.	الرابع
05	القصة القرآنية، خصائصها، أهدافها.	الخامس
06	سياقات النص القرآني: السياق السببي: أسباب النزول، السياق المكاني: المكي والمدني.	السادس
07	السياق التراتبي: أول وآخر ما نزل، الناسخ والمنسوخ	السابع
08	السياق التداولي: القراءات القرآنية، مفهومها، أنواعها، الحكمة منها.	الثامن
09	مناهج التفسير ونقدها: معنى التفسير والتأويل والشرح، شروط المفسر (العلمية والذاتية)، تاريخ التفسير (عهد الصحابة، التابعين، عهد التدوين)	التاسع
10	التفسير بالمأثور: خصائصه، أعلامه، نقده، التفسير بالرأي: خصائصه، أعلامه، نقده.	العاشر
11	التفسير اللغوي: خصائصه، أعلامه، نقده.	الحادي عشر
12	التفسير البياني والأدبي: خصائصه، أعلامه، نقده.	الثاني عشر
13	الإعجاز القرآني: الإعجاز اللغوي والبياني.	الثالث عشر
14	الإعجاز الإخباري والتشريعي.	الرابع عشر

رابعاً: مخرجات المساق

أن يتوصل الطلاب إلى معرفة هذا اللون من العلوم الضرورية النافعة لكونها تعتبر سبيلاً قويماً لفهم مراد الله تعالى، ومعرفة أحكامه وحكمه، وكذا معرفة فضل القدامى في خدمة هذا الكتاب العزيز والاستزادة من التسلح بما من شأنه ردّ الشبهات التي تطعن في عقائده وأحكامه، وهذا كله مع مراعاة التطبيق العلمي والعملي للخطوات النظرية المكتسبة في كتابة بحث في مادة علوم القرآن.

خامساً: أسلوب تدريس المساق

أساليب متنوعة؛ نستعرضُ منها مطابقة لتصنيف الأهداف التعلمية المعرفية المهارية والوجدانية في فن التدريس عند بلوم لنختزلها في خمسة أنحاء كالآتي:

الرقم	الهدف	المقصود منه
01	المعرفة	تذكر المكتسبات السابقة؛ وتتضمن استرجاع المصطلحات، النظريات، الحقائق التي يتطلبها المساق.
02	الفهم	القدرة على إدراك المفاهيم والمعاني، الحقائق الخاصة بالمساق.
03	التطبيق	يوظف الطالب المعارف التعلمية المكتسبة من علوم القرآن ، يتطلب هذا المستوى درجة عالية من المعرفة والفهم.
04	التحليل	القدرة على تفكيك وتجزيئ الفكرة العامة لعلوم القرآن إلى مكونات وأجزاء؛ من أجل بناء الفهم التنظيمي لها، واعتماد العلاقة القائمة بين مكوناتها.
05	التركيب	القدرة على تجميع الأجزاء لتكوين منتج كامل؛ وبناء عقلي للمفاهيم والأفكار المتعلقة بمساق علوم

		القرآن.

سادساً: متطلبات دراسة المساق

محاضرات المقياس المقررة؛ ترفع كلّ أسبوع محاضرة.

كتابة بحث.

ثامناً: التقييم

الرقم	الموضوع	الدرجة
01	الاختبار الأسبوعي	05
02	تكليف البحث	02
03	الاختبار الشفهي	03
04	الاختبار النهائي	10
المجموع		20

محاضرات في مادة: علوم القرآن

المحاضرة الأولى: تعريفات، أهمية القرآن وعلومه في الدّراسات اللغوية والأدبية

أولاً: تعريف علوم القرآن باعتباره مركباً إضافياً

يقتضي منهج البحث التحليلي لهذا المركب الإضافي (علوم القرآن) التّحدّث عن طرفيه ابتداءً وعن الإضافة بينهما ثم عن المراد بهذا المركب بعد نقله وتسمية هذا الفن المدون به.

2)* لفظ (العلم) لغة واصطلاحاً

١- أما العلوم: فجمع علم والعلم في اللغة مصدر يرادف الفهم والمعرفة ويرادف الجزم أيضا في رأي. ثم تداولت هذا اللفظ اصطلاحات مختلفة:

أ)- في اصلاح المناطقة:

العلم إذا أطلق، إما أن يراد به نفس الإدراك، نحو قول أهل المنطق: العلم إما تصور وإما تصديق، وإما أن يراد به الملكة المسماة بالعقل، وإما أن يراد به التصديق الجازم: وهو مقابل الجهل، وهذا غير مراد في عدّ العلوم، وإما أن يراد بالعلم: المسائل المعلومات؛ وهي مطلوبات خبرية يبرهن عليها في ذلك العلم؛ وهي قضايا كلية، ومباحث هذا العلم [علوم القرآن] ليست بقضايا يبرهن عليها فما هي بكلية، بل هي تصورات جزئية غالباً[1]، وختاماً نجدُ الحكماء: يريدون به صورة الشيء الحاصلة في العقل أو حصول الصورة في العقل أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه. والتحقيق عندهم هو الإطلاق الأول[2].

ب)- في اصطلاح أهل العقيدة:

والمتكلمون: يعرفون العلم: بأنه صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به وهو مراد من قال منهم: إنه صفة توجب لمحلها تمييزا لا يحتمل النقيض ولو كان هذا التمييز بوساطة الحواس كما هو رأي الأشعري.

ج)- لفظ "العلم" في لسان الشّرع العام:

ويطلق العلم في لسان الشرع العام: على معرفة الله تعالى وآياته وأفعاله في عباده وخلقه.

اللفظ الثاني العلم وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، ثم تصرّفوا فيه بالتخصيص، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الإمام الغزالي في قوله لإثبات هذه المسألة: ".. حتى أنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله لقد مات تسعة أعشار العلم فعرفه بالألف واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها فيقال هو العالم على الحقيقة وهو الفحل في العلم ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم"[3].

د)- لفظ "العلم" في عرف التّدوين العام:

لعل الذي يتعلّق بالدّراسة أكثر هو لفظ "العلم" في اصطلاح علماء التدوين، كون الحديث في علوم القرآن كفن مدون. و«العلم» في عرف التدوين العام عبارة عن: «جملة من المسائل المضبوطة بجهة واحدة» سواء أكانت

---

[1] ينظر؛ مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ج1، ص12

[2] ينظر؛ مُحَمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة، ج1، ص12

[3] ينظر؛ أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، دط، دت، ج1، ص33

وحدة الموضوع أم وحدة الغاية، والغالب أن تكون تلك المسائل كلية نظرية، وقد تكون ضرورية، وقد تكون جزئية، مثل: «مسائل علم الحديث رواية» كقولهم: «إنما الأعمال بالنيات ... » بعض قوله ﷺ، أما «العلم» بمعنى: «الملكة التي بها تستحصل هذه المسائل» أو بمعنى: «إدراك المسائل» فغير مراد هنا؛ لأن بحثنا في «العلم» بمعنى: الفن المدون، ومعلوم أن الذي يدون ويؤلف هي «المسائل والقواعد» لا الملكة ولا الإدراك[4].

2)* لفظ (القرآن) لغة واصطلاحاً

أولاً: المعاني اللغوية المنقولة للفظ القرآن.

قيل في معناه: أصله من قرأ؛ وقرأت الكتاب قراءة وقرآنا، ومنه سمي القرآن. وقال أبو عبيدة: سمي القرآن لأنه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: (إنّ علينا جمعه وقرآنه) أي جمعه وقراءته، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) أي قراءته، قال ابن عباس: "فإذا بيناه لك بالقراءة فاعمل بما بيناه لك"، و"فلان قرأ عليك السلام وأقراك السلام"، بمعنى. وأقرأه القرآن فهو "مقرئ"، وجمع القارئ "قرأة" مثال: كافر وكفرة. والقراء: الرجل المتنسك، وقد تقرأ، أي تنسك، والجمع: "القراءون"، قال الفراء: أنشدني أبو صدقة الدبيري:

بيضاء تصطاد الغوي وتستبي بالحسن قلب المسلم القراء

وقد يكون القراء جمعا "لقارئ"، و"القِرأة" بالكسر ـ مثال: "القرعة: الوباء"، قال الأصمعي: "إذا قدمت بلادا فمكثت بها خمس عشرة، فقد ذهبت عنك قِرأة البلاد". قال: "وأهل الحجاز يقولون: قرة بغير همز". ومعناه: أنه إذا مرض بها بعد ذلك فليس من وبإ البلد[5].

وقيل في تعريفه: "قرأ: القرآن: التنزيل العزيز، وإنما قدم على ما هو أبسط منه لشرفه. قرأه يقرؤه ويقرؤه، الأخيرة عن الزجاج، قرءا وقراءة وقرآنا، الأولى عن اللحياني، فهو مقروء. أبو إسحاق النحوي: يسمى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه، ﷺ، كتابا وقرآنا وفرقانا، ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآنا لأنه يجمع السور، فيضمها. وقوله تعالى: [إنّ علينا جمعه وقرآنه] ، أي جمعه وقراءته، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ، أي قراءته. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فإذا بيناه لك بالقراءة، فاعمل بما بيناه لك، فأما قوله: فإنه أراد لا يقرأن السور، فزاد الباء كقراءة من قرأ: تنبت بالدهن، وقراءة من قرأ: يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، أي تنبت الدهن ويذهب الأبصار. وقرأت الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض. ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى قط، وما قرأت جنينا قط. أي لم يضطم رحمها على ولد[6].

ثانياً: المعاني اللغوية المستنبطة للفظ القرآن.

تحرير محل النزاع: ذهب العلماء في لفظ [القرآن] مذاهب، فهو عند بعضهم "مهموز"، وعند البعض الآخر "غير مهموز"[7]، وقول متفرد[8]؛ فمن رأى أنه بغير همز: الشافعي والفراء، والأشعري.

المذهب الأول: يرى أنه مهموز، وأصحاب هذا المذهب على ثلاثة أنحاء:

---

[4] ينظر؛ مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن سويلم أبو شُهبة (ت ١٤٠٣هـ)، المدخل لدراسة القرآن الكريم، مكتبه السنة – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، ص18-19

[5] ينظر؛ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، ج1، ص65

[6] ينظر؛ مُحَمَّد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، ج1، ص128

[7] ينظر؛ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، 2014، ص18

[8] ينظر؛ حازم سعيد حيدر،علوم القرآن بين البرهان والإتقان، دار الزمان، 1420هـ، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ص17

(أ): مصدر على وزن فُعلان.

ذهب إلى هذا القول: اللحياني، والجوهري، والراغب الأصفهاني، وابن الأثير: هو مصدر على وزن فُعلان؛ كالرُّجحان من قرأْتُ، سمّي به الكتابُ المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر[9].

(ب): وصفٌ على فعلان.

ذهب إلى هذا القول: الزّجاج وعلّل ذلك بكونه وصفٌ على فُعلان، مشتق من القَرْء بمعنى الجمع[10]؛ قال الزجاج وهذا القول سهو، والصّحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وهذا ما أشار إليه الفارسي في الحلبيات وقوله: {إن علينا جمعه وقرآنه} أي جمعه في قلبك حفظا، وعلى لسانك تلاوة وفي سمعك فهما وعلما ولهذا قال بعض أصحابنا إن عند قراءة القارئ تسمع قراءته المخلوقة ويفهم منها كلام الله القديم وهذا معنى قوله: {لا تسمعوا لهذا القرآن} أي لا تفهموا ولا تعقلوا لأن السمع الطبيعي يحصل للسامع شاء أو أبى[11]، فبناءً على ما تقدّم من قول الزّجاج يكون القرآن وصفاً على فُعلان، مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته[12].

(ج): تشبيه من قول العرب "ما قرأت الناقة سلاً قطُّ"

قال قطرُب: سُمي القرآنُ قرءاناً؛ لأنّ قارئه يُظهرهُ ويبيّنه من فمه، أخذاً من قول العرب: "ما قرأت النّاقة سلاً قطُّ"؛ أي: "ما ألقتْ ولا رمتْ بولد"، و وجه التّشبيه أنّ قارئ القرآن يلفظه ويلقيه من فمه، فسمي القرآن قرآناً[13].

المذهب الثاني: يرى أنه غير مهموز، وأصحاب هذا المذهب على ثلاثة أنحاء:

(أ): مشتق من قرنت الشّيء بالشّيءِ

قال قوم منهم الأشعري: هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء؛ إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمي به لقِرَان السُّور والآيات والحروف فيه[14]، ومنه قيل: للجمع بين الحجّ والعمرة [قِران][15].

(ب): مشتق من القرائن

نسب هذا القول إلى القرطبي الزركشي في قوله: "وقال القرطبي القران بغير همز مأخوذ من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا فهي حينئذ قرائن"[16]، وذهب القرطبي في تفسيره إلى أنّ القرآن مصدر قرأ يقرأُ قراءةً وقرآناً[17]. بينما نسب صاحبُ الإتقان القول بأنّ القرآن مشتق من القرائن للفراء حيثُ قال:

---

[9] ينظر؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم،الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م، ج1، ص182

[10] ينظر؛ علوم القرآن بين البرهان والإتقان، مرجع سابق، ص18

[11] ينظر؛ أبو عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن،المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ج1، ص279

[12] ينظر؛ كتاب الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص182

[13] ينظر؛ علوم القرآن بين البرهان والإتقان، مرجع سابق، ص19

[14] ينظر؛ كتاب الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص182

[15] ينظر؛ البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص278

[16] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص278

[17] ينظر؛ أبو عبد الله، مُحَمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ج2، ص298

وقال الفراء: هو مشتق من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن وعلى القولين هو بلا همز أيضا ونونه أصلية"[18].

(ج): مشتق من القَرْي.

قال الزركشي: "وأما القرآن فقد اختلفوا فيه فقيل هو اسم غير مشتق من شيء بل هو اسم خاص بكلام الله وقيل مشتق من القري وهو الجمع ومنه قريت الماء في الحوض أي جمعته قاله الجوهري وغيره"[19].

المذهب الثالث: اسم علم غير مشتق، وليس مهموز

اختار هذا القول الإمام الشافعي؛ قال مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الحكم: قال الشافعي: وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وكان يقول: القرآن اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من "قرأتُ"، ولو أخذ من "قرأتُ" لكان كلُّ ما قرئ قرآناً، ولكنه "اسم للقرآن" مثل: "التوراة" و"الإنجيل" يهمز "قرأت"، ولا يهمز "القرآن"، وكان يقول: {وإذا قرأت القران} الآية تهمز (قرأتَ)، ولا يهمز (القرآن)[20].

ثالثاً: المعاني الاصطلاحية المنقولة للفظ القرآن

الوجهة الأولى: من حيثُ كونه صفة من صفات الله تعالى – وهي الكلام[21] -، فيذكر أئمة السّنة أوصافاً وخصائص له:

(أ)- أنه كلام الله تعالى حقيقة منزّل غير مخلوق[22].

(ب)- التفريق بين القراءة والمقروء[23]؛ وأن القراءة صفة المخلوق بحروفها وأصواتها، وأنّ المقروء بها هو كلام الله القديم[24].

---

[18] ينظر؛ كتاب الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص182

[19] ينظر؛ البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص277

[20] ينظر؛ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، مناقب الشافعي للبيهقي، المحقق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، ج1، ص277 وينظر أيضاً: ؛ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م، ج2، ص392

[21] الكلام: صفة من صفات المعاني؛ وهو صفة أزليّة نفسية، ليست بحرف ولا صوت، تدلّ على جميع المعلومات، وممّا ينبغي معرفته في هذا المقام؛ أنّ كلام الله تعالى يطلق بالاشتراك اللّفظي والنفسي الذي هو الصّفة القديمة، فهو: حقيقة عرفية في كلٍّ: فاللّفظي: ما كان بحرف وصوت، ومدلوله بعض مدلول الكلام النفسي القديم القائم بذاته تعالى، والنفسي: ماليس بحرف ولا صوت، ولا يوصف بتقديم ولا تأخير، ولا بداية ولا نهاية، ولا تقسيم، وهو قديم ليس بمخلوق، فالكتب السّماوية دالة على بعض الكلام النفسي، ولا يحيطُ بمدلوله إلا هو؛ لأنّ مدلول الكلام النفسي: الواجبات والمستحيلات والجائزات تفصيلاً، وأما الكتب السّماوية فقد دلّت على بعض الواجبات تفصيلاً، وكلّ الواجبات إجمالاً، وكذا المستحيلات والجائزات، وتكليم الله لموسى [عليه السلام] على الجبل كان بالكلام النفسي على التحقيق عند الأشاعرة وبعض الماتريدية، وتقسيم الكلام إلى أمر ونهي، وخبر واستخبار، و وعد و وعيد إنما هو لتلك المدلولات التي دلّ عليها الكلام اللّفظي، وأما الصّفة القديمة فيستحيل انقسامها، يرجع: أحمد بن مُحَمَّد العدوي الشهير بـ(الدّردير) (ت1201هـ)، شرح الخريدة البهية في علم التوحيد، تحقيق: عبد السّلام بن عبد الهادي شنار، دار البيروني، دط، دت، ص78

[22] ينظر؛ عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النجدي (ت ١٣٩٢هـ)، حاشية مقدمة التفسير (المقدمة والحاشية كلاهما للشيخ ابن قاسم رحمه الله)، بدون ناشر، الطبعة: الثانية، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ص13

[23] الدّليل على ذلك من جهة العقل؛ هو أن يُعلم أن القراءة تارة تكون طيّبة مستلذّة، وتارة فجّة تنفرُ منها الطّباع، وتارة رفيعة عالية، وتارة منخفضة خفية، وتارة يلحقها اللحن والخطأ، وتارة تصحّح وتقوم، وما جازت عليه الأشياء فلا يجوز أن يكون إلا صفة الخلق دون صفة الحق، وكذلك أيضاً الكتابة، وكذلك الحفظ والسّمع، فقراءة القارئ تارة تكون طاعة وقربة، وتارة تكون معصية وذنباً، لكن المقروء في الحالتين شيء واحد، وهو كلام الله تعالى القديم لا يتّصف بالشيء وضدّه، يرجع: القاضي أبو بكر مُحَمَّد بن

(ج)- أنه يُرفع قبل يوم القيامة [في آخر الزّمان] من المصاحف والصّدور؛ روى المروذي أحمد بن مُحَمَّد قال: قال أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل [رحمه الله]: "لقيتُ الرّجالَ والعلماء، والفقهاء بمكة، والمدينة والكوفة، والبصرة، والشام والثغور، وخراسانَ فرأيتهم على السنّة والجماعة، وسألتُ عنها الفقهاء؟ فكلّ يقول: "القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود"[25].

الوجهة الثانية: تتعلق بالناحية اللفظية منه، وهي التي عرّف الأصوليون القرآن من خلالها؛ والمتقدّمون من العلماء لم يضعوا تعريفاً للقرآن، وإنما تكلّموا عن أحكامه وعن بيان السنّة له، ونحو ذلك[26]:

من أوّل من عرفه من هذه الناحية الغزالي حيثُ قال: " وحدُّ الكتاب: ما نقل إلينا بين دفتي المصحف على الأحرف السبعة المشهورة نقلاً متواتراً"[27]، ثمّ استرسل في شرح محترزات التعريف وفق منهج [الفنقلة] فقال: "ونعني بالكتاب: القرآن المنزل، وقيدناه بالمصحف؛ لأنّ الصّحابة بالغوا في الاحتياط في نقله حتى كرهوا التعاشير والنقط، وأمروا بالتجريد كي لا يختلط بالقرآن غيره، ونقل إلينا متواتراً، فعُلم أنّ المكتوب في المصحف المتفق عليه هو: القرآن، وأنّ ما هو خارج عنه فليس منه، إذ يستحيل في العرف والعادة مع توفر الدّواعي على حفظه أن يهمل بعضه فلا ينقل أو يخلط به ما ليس منه، فإن قيل: هلا حددتموه بالعجز؟ قلنا: لا؛ لأنّ كونه معجزاً يدل على صدق الرسول - عليه السلام - لا على كونه كتاب الله تعالى لا محالة، إذ يتصور الإعجاز بما ليس بكتاب الله تعالى؛ ولأن بعض الآية ليس بمعجز وهو من الكتاب، فإن قيل: فلم شرطتم التواتر؟ قلنا: ليحصل العلم به؛ لأن الحكم بما لا يعلم جهل، وكون الشيء كلام الله تعالى أمر حقيقي ليس بوضعي حتى يتعلق بظننا فيقال إذا ظننتم كذا فقد حرمنا عليكم فعلا أو حللناه لكم، فيكون التحريم معلوما عند ظننا ويكون ظننا علامة يتعلق التحريم به، لأن التحريم بالوضع فيمكن الوضع عند الظن، وكون الشيء كلام الله تعالى أمر حقيقي ليس بوضعي، فالحكم فيه بالظن جهل"[28].

قال الضياء في تعريفه: " وكتاب الله -سبحانه- هو كلامه، وهو القرآن الذي نزل به جبريل -عليه السلام- على النبي -ﷺ-... وهو: ما نقل إلينا بين دفتي المصحف نقلا متواتراً"[29].

الوجهة الثالثة: تتعلق بالناحية المقاصدية له، وهي التي عرفّ بها أهل علم مقاصد الشّريعة الإسلامية القرآن، بكونه عمدة الملة وكلية الشّريعة الإسلامية.

الطّيب الباقلاني البصري (ت403هـ)، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: الحبيب بن طاهر، دار مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1432هـ-2011م، ص208

[24] وعليه: فالقراءة غير المقروء، فالأولى صفة للقارئ، والمقروء بها غير مخلوق بل هو من كلام الباري، وكذلك الحفظ صفة القلب، والمحفوظ غير مخلوق، بل هو كلام الربّ جلّ وعلا، وكذلك السّمع صفة السّامع، والمسموع بها غير مخلوق بل هو من كلام الله تعالى، وكذلك الكتابة صفة الكاتب، والمكتوب بها من القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ولا صفة لمخلوق، يرجع: المرجع نفسه، ص217

[25] ينظر؛ ابن قدامة، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الواحد المقدسي (ت643هـ)، اختصاص القرآن بعوده إلى الرّحيم الرّحمن، تحقيق: عبد الله بن يوسف الجديع، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1409هـ-1989م، ص21

[26] ينظر؛ علوم القرآن بين البرهان والإتقان، مرجع سابق، ص22

[27] ينظر؛ أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، المستصفى، تحقيق: مُحَمَّد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص81

[28] ينظر؛ المرجع نفسه، ص81

[29] ينظر؛ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة الجماعيلي (٥٤١ - ٦٢٠ هـ)، روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعبان مُحَمَّد إسماعيل [ت ١٤٤٣ هـ]، مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٢ م، ج1، ص199

قال الشاطبي في تعريفه: "إنّ الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطّلبة، ويجد نفسه من السابقين في الرعيل الأول، فإن كان قادراً على ذلك، ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب، وإلا؛ فكلام الأئمة السّابقين، والسّلف المتقدمين آخذ بيده في هذا المقصد الشريف، والمرتبة المنيفة"[30].

قال ابن عاشور: " وقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتاباً مخاطباً به كل الأمم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر وهي: "اللغة العربية"، لأسباب يلوح لي منها: أنّ تلك اللغة أوفر اللغات مادةً، وأقلها حروفاً، وأفصحها لهجةً، وأكثرها تصرفاً في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظاً، وجعله جامعاً لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة، فكان قوام أساليبه جارياً على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب"[31].

رابعاً: تعريف "علوم القرآن" باعتباره لقباً على علم

المرادُ بعلوم القرآن: العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن، وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير, لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن[32].

وقيل في تعريفه: "علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من جهة نزوله كمكيه ومدنيه ونحوه كسنده وأدئه، وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالأحكام وغير ذلك"[33].

وقيل في تعريفه بشكل عام: "هي جميع المعلومات والبحوث التي تتعلّق بالقرآن الكريم، وتختلف هذه العلوم في الناحية التي تتناولها من الكتاب الكريم"[34].

خامساً : أهمية القرآن وعلومه في الدّراسات اللغوية

لقد ارتبطت الدراسات اللغوية مذ نشأتها إلى يومنا هذا بالقرآن الكريم، فالقرآن الكريم معينٌ لا ينضب، جامعٌ لما كان وما سيكون، هو الفصلُ ليس بالهزل؛ فعَنْ حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ، عَنِ ابِي الْمُخْتَارِ الطَّائِيِّ، عَنِ ابْنِ اَخِي الْحَارِثِ، عَنِ الْحَارِثِ، قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا أُنَاسٌ يَخُوضُونَ فِي اَحَادِيثَ فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ اَلَا تَرَى اَنَّ أُنَاسًا يَخُوضُونَ فِي الْاَحَادِيثِ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ قَدْ فَعَلُوهَا قُلْتُ نَعَمْ قَالَ اَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "سَتَكُونُ فِتَنٌ قُلْتُ وَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا قَالَ كِتَابُ اللَّهِ، كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا

---

[30] ينظر؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)، كتاب الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ج4، ص144

[31] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص98

[32] ينظر؛ مناع بن خليل القطان (ت ١٤٢٠هـ)، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص12

[33] ينظر؛ مُحَمَّد بن علوي المالكي (1425هـ)، القواعد الأساسية في علوم القرآن، فهرسة مكتبة الملك فهد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1424هـ، ص7

[34] ينظر؛ مُحَمَّد باقر الصدر (1400هـ)، المدرسة القرآنية، مركز الأبحاث والدّراسات التخصّصية، إيران، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ، ص211

بَيْنَكُمْ هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ هُوَ الَّذِي مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ اَضَلَّهُ اللَّهُ فَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ اَنْ قَالُوا اِنَّا سَمِعْنَا قُرْاٰنًا عَجَبًا هُوَ الَّذِي مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ دَعَا اِلَيْهِ هُدِيَ اِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ خُذْهَا اِلَيْكَ يَا اَعْوَرُ"[35]، والقرآن الكريم قد تعدّدت فيه الأساليب التعبيرية وتنوعت، مما شكل إعجازاً نظمياً فيه، ولعلّ ما زاده إعجازاً هو اختلاف القراءات القرآنية التي أنزلت على سيدنا مُحَمَّد(ﷺ) لاختلاف لغات العرب، ومن بين الاختلافات الموجودة في القراءات القرآنية، الاختلاف في الأوزان الصّرفية، وهذا الاختلاف موجود أيضاً حتى في القراءة الواحدة، ويدخل تحت ما يسمى بمتشابه القرآن، وهو ما أدى إلى الاختلاف في التخريجات القرآنية، وبالتّالي اختلاف الدلالات والأحكام في بعض الآيات الحكمية، ولهذا احتاج أهل الفقه إلى علم الصرف في الاعتماد عليه لإصدار أحكامهم الفقهية، وذلك لأن الصّرف ميزانُ اللغة وبه يعرف الأصل والفرع، كما لا يعرف الاشتقاق إلا به، وقد اهتم الباحثون بالجانب القرآني، واتخاذه كمدونة للدراسات اللسانية على اختلاف مذاهبها، وخاصة من جانب الانسجام النصي، لما للقرآن من نظم محكم فكما كان القرآن حقلاً للدراسات للسانية المختلفة، كان الأمر نفسه بالنسبة للدراسات التداولية التي أثبتت فاعليتها كنظرية لغوية أكثر اتضاحاً، و تدرس التواصل اللساني باعتباره تواصلاً كلياً وشاملاً ومنهجاً سليماً للتأويل.

سادساً : أهمية القرآن وعلومه في الأدب العربي

تنطلق أهمية القرآن في الأدب العربي ابتداءً كون هذا الكتاب العربي المبين، هو أول كتاب ظهر في تاريخ اللغة العربية وإنما نشأت حركات التدوين والتأليف بعد ذلك على ضوؤه وسارت بإشراقه، وتأثرت بوحيه وأسلوبه، ومن أجل ذلك، كان مظهراً هاماً للحياة العقلية والفكرية والأدبية التي عاشها العرب فيما بعد، فكيف يتأتى أن يكون هذا الكتاب مع ذلك بمعزل عن العربية وعلومها وآدابها؟! ثمّ إنّ أن اللغة العربية إنما استقام أمرها على منهج سليم موحد بسر هذا الكتاب وتأثيره، وهي إنما ضمن لها البقاء والحفظ بسبب ذلك وحده، فقد كانت اللغة العربية من قبل عصر القرآن أمشاجاً من اللهجات المختلفة المتباعدة، وكان كلما امتد الزمن، ازدادت هذه اللهجات نكارة وبُعداً عن بعضها، وحسبك أن تعلم أن: المعينية، والسبئية، والقتبانية، واللحيانية والثمودية والصفوية والحضرمية، كلها كانت أسماء للهجات عربية مختلفة، ولم يكن اختلاف الواحدة منها عن الأخرى محصورًا في طريقة النطق بالكلمة، من ترقيق أو تفخيم أو إمالة أو نحو ذلك، بل ازداد التخالف واشتد إلى أن انتهى إلى الاختلاف في تركيب الكلمة ذاتها وفي الحروف المركبة منها، وفي الإبدال والإعلال والبناء والإعراب، فقضاعة مثلا كانت تقلب الياء جيما إذا كانت ياء مشددة أو جاءت بعد العين، وكانت العرب تسمي ذلك: عجعجة قضاعة. ومن ذلك قول شاعرهم: خالي عويف وأبو علج ... المطعمان اللحم بالعشج[36]

وحمير كانت تنطق ب «أم» بدلا من «أل» المعرفة في صدر الكلمة، وكانت العرب تسمي ذلك طمطمانية حمير، ومن ذلك قول أحدهم لرسول الله ﷺ يسأله: "أمن امبر امصيام في امسفر؟ يريد أن يقول: هل من البر الصيام

---

[35] ينظر؛ ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم، درء تعارض العقل والنقل، المترجم: رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، 1400هـ، ج5، ص268 رقم الحديث: 3185

[36] ينظر؛ محمد سَعيد رَمضان البوطي، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، الناشر: موسسة الرسالة – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ص19

في السفر؟ وهذيل كانت تقلب الحاء في كثير من الكلمات عينا، فكانوا يقولون: "أعل الله العلال بدلا من أحل الله الحلال"، وهكذا دواليك .. فقد كانت كل قبيلة تختلف في النطق عن الأخرى بوجوه من الاختلافات كثيرة، حتى باعد ذلك بين ألسنة العرب وأوشك أن يحول اللغة الواحدة إلى لغات عدة متجافية لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها، فلما تنزل القرآن، والتفتوا إليه فدهشوا لبيانه، وسجدوا لبلاغته وسمو تعبيره، وأجمعوا على اختلاف أذواقهم ومسالكهم ولهجاتهم أن هذا هو البيان الذي لا يجارى ولا يرقى إليه النقد-كان ذلك إيذانا بميلاد مثلهم الأعلى فيما ظلوا يختلفون فيه ويتفرقون عليه، وأصبحت بلاغة هذا الكتاب العزيز بعد ذلك هي الوحدة القياسية التي تقاس إليها بلاغة كل نص وجمال كل تعبير، ثم تعاقبت الدراسات عليه من أرباب هذا الشأن وعلمائه، فاستخرجوا منه قواعد البلاغة ومقومات البيان ومسالك الإعجاز فكانت هذه العلوم البلاغية التي امتلأت بها المكتبة العربية، وأصبحت فنا مستقلا بذاته. ولولا القرآن لما عرف هذا الفن ولا استقامت تلك الأصول والقواعد، ولتبدد المثل البلاغي الأعلى في أخيلة فصحاء العرب وشعرائهم ... فكيف يستقيم مع ذلك، أن يدرس هذا الفن وأصوله بمنأى عن مثله الأعلى ومصدره العظيم الأول؟[37]

[37] ينظر؛ من روائع القرآن، مرجع سابق، ص20

المحاضرة الثانية: تاريخ القرآن؛ نزول القرآن، بدايات الوحي، التنجيم.

أولاً: القرآن تعريفه وحقيقته

تقدّم معنا أنّ القرآن هو: اللفظ العربي المعجز بلفظه ومعناه، الموحى به إلى سيّدنا مُحَمَّد صلّى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته، والواصل إلينا عن طريق التواتر، فلنشرح كل واحد منها على حدة إجمالاً، لنتبين حقيقة القرآن الكريم من وراء هذا التعريف، ونقف على ضبطه وحدوده، ثمّ نعقّب على ما شرحناه من الأصول بعد ذلك بشي من التفصيل.

أولا- المعجز: ويقصد منه ما اتصف به القرآن من البلاغة والبيان اللذين أعجزا بلغاء العرب كافة عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، رغم التحدي المتكرر، ورغم التطلع الشديد لدى الكثير منهم إلى معارضته والتفوق على بيانه. وللقرآن وجوه غير هذا الوجه في إعجازه، ولكن الوجه المقصود منها عند التعريف هو هذا.

ثانيا- الموحى به: ومعناه المنزل عليه من الله عز وجل بواسطة جبريل، وهذا أهم قيد في تعريف القرآن وتحديد ماهيته، وإذا كان «الوحي» عنصراً هاماً في حقيقة القرآن وتعريفه، فلا بد من دراسة وافية- وإن كانت موجزة- لهذه الكلمة، وتحليل صادق لحقيقتها.

ثالثا- التعبد بتلاوته؛ والمقصود به أنّ من خصائص هذا الكتاب الكريم أنّ مجرد قراءته تكسب القارئ أجراً ومثوبة عند الله، وأنّ ذلك يعتبر نوعاً من العبادة المشروعة، وأنّ الصلاة لا تصح إلا بقراءة شيء منه ولا يغني عنه غيره من الأذكار أو الأدعية أو الأحاديث.

رابعا- وصوله عن طريق التواتر؛ ومعناه أن قرآنية آية من القرآن لا تثبت حتى تصل إلينا بطريق جموع غفيرة لا يمكن اتفاقها على الكذب، ترويها عن جموع مثلها إلى الناقل الأول لها بعد أن تنزلت عليه وحيا من الله عز وجل، وهو سيدنا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام.

فإذا تأملت هذه القيود الأربعة في التعريف تصورت حقيقة القرآن خالية عن شوب أي ليس بالحديث النبوي أو القراءات الشاذة أو الحديث القدسي أو الترجمة الحرفية أو غير الحرفية للقرآن. إذ الحديث ليس بمعجز والقراءات الشاذة غير متواترة، والحديث القدسي غير معجز، ذلك لأن اللفظ فيه من الرسول عليه الصلاة والسلام، والترجمة ليست هي اللفظ المنزل[38].

ثانياً: المعجزة تعريفها وحقيقتها

أ)- المعنى اللغوي للفظ المعجزة

أصلُ المعجزة من العجز؛ يقول الأصفهاني: "عجز الإنسان: مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره، قال تعالى: كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [القمر/ ٢٠] ، والعَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مؤخّره، كما ذكر في الدّبر، وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضدّ القدرة. قال تعالى: أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ [المائدة/ ٣١] ، وأَعْجَزْتُ فلاناً وعَجَّزْتُهُ وعَاجَزْتُهُ: جعلته عَاجِزاً، قال تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ [التوبة/ ٢] ، وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ [الشورى/ ٣١] ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ [الحج/ ٥١] ، وقرئ: معجزين «٢» فَمُعَاجِزِينَ قيل: معناه ظانّين ومقدّرين أنهم يُعْجِزُونَنَا، لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور فيكون ثواب وعقاب، وهذا في المعنى كقوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا [العنكبوت/ ٤] ، و «مُعَجِّزِينَ» : يَنْسُبُون

---

[38] ينظر؛ من روائع القرآن، مرجع سابق، ص25 إلى 36

إلى العَجْزِ مَن تَبِعَ النبيَّ صلّى الله عليه وسلم، وذلك نحو: جهّلته وفسّقته، أي: نسبته إلى ذلك. وقيل معناه: مثبّطين، أي: يثبّطون الناس عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم «١» ، كقوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [الأعراف/ ٤٥] ، وَالعَجُوزُ سمّيت لِعَجْزِهَا في كثير من الأمور[39]؛ قال تعالى: إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ [الصافات/ ١٣٥] ، وقال: أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ [هود/ ٧٢] .

وذكر ابن فارس أنّ العين والجيم والزّاء (عجز) أصلان صحيحان: يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء، فالأول عجز عن الشيء يعجز عجزاً، فهو عاجز؛ أي ضعيف، وقولهم "إنّ العجز نقيض الحزم" فمن هذا؛ لأنه يضعف رأيه، ويقولون: "المرء يعجز لا محالة "، ويقال: "أعجزني فلان"،" إذا عجزت عن طلبه وإدراكه"، و"لن يعجز الله - تعالى – شيء"، أي: "لا يعجز الله - تعالى - عنه متى شاء"، وفي القرآن: {لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً} [الجن: ١٢] ، وقال تعالى: {وما أنتم بمعجزين في الأرض} [العنكبوت: ٢٢] . ويقولون: عَجَز بفتح الجيم. وسمعت علي بن إبراهيم القطان يقول: سمعت ثعلبا يقول: سمعت ابن الأعرابي يقول: لا يقال عجز إلا إذا عظمت عجيزته[40]؛ أمّا الأصل الآخر فقال فيه: وأما الأصل الآخر فالعجز: مؤخر الشيء، والجمع أعجاز، حتى إنهم يقولون: عجز الأمر، وأعجاز الأمور. ويقولون: " لا تدبروا أعجاز أمور ولت صدورها ". قال: والعجيزة: عجيزة المرأة خاصة إذا كانت ضخمة، يقال امرأة عجزاء. والجمع عجيزات كذلك. قال الخليل: ولا يقال عجائز، كراهة الالتباس. وقال ذو الرمة: عجزاء ممكورة خمصانة قلق ... عنها الوشاح وتم الجسم والقصب[41].

وهناك من رجّح أمام هذه الآراء الثلاثة قول الرّاغب الأصفهاني[42]؛ باعتبار أصله: لكون أصل العجز في اللغة مؤخّر الإنسان، واستعير لغيره، وهناك صلة وثيقة بين هذا المعنى، وبين القصور عن الشيء، فإنّ التأخر والقصور متلازمان؛ لأنّ من تأخر عن غيره إنما يرجع ذلك إلى تقصيره، وعلّل مذهبه أيضاً باعتبار ورود هذه القضية في القرآن الكريم، واللغويون والمفسرون مجمعون على أن ليس للعجز إلا هذا المعنى[43]، وعليه: فكلمة الإعجاز لا تدلُّ إلا على مؤخّر الشيء، وعلى التقصير عن بلوغ المراد، ولا يمكن أن تحمل في طيّاتها معنى القدرة، ولا ينبغي أن نخلط بين الوضع اللغوي للكلمة، وبين ما يكون لها من صفاتٍ خلقية أو خُلقية، مع أنه قد يكون للكلمة ظلال كثيرة، ولوازم متعدّدة[44].

ب)- إعجاز القرآن الكريم

اعتنى بذلك الأئمة وأفردوه بالتصنيف منهم القاضي أبو بكر بن الباقلاني؛ قال ابن العربي: "ولم يصنف مثله"، وكتاب الخطابي والرماني والبرهان لعزيزي وغيرهم، وهو علم جليل عظيم القدر لأنّ نبوة النبي صلى الله عليه وسلم معجزتها الباقية القرآن وهو يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز، قال تعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد} وقال سبحانه: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا تكون حجة إلا

---

[39] ينظر؛ أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن،المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ، ص548

[40] ينظر؛ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج4، ص232

[41] ينظر؛ المرجع نفسه، ج4، ص233

[42] ينظر؛ فضل حسن عباس، سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، دط، دت، ص10

[43] ينظر؛ المرجع نفسه، ص10-11

[44] ينظر؛ المرجع نفسه، ص16

وهي معجزة وقال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم} فأخبر الكتاب آية من آياته وأنه كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء، ولما جاء به صلى الله عيه وسلم إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء تحداهم على أن يأتوا بمثله وأمهلهم طول السنين، فلم يقدروا[45].

ج)- جهات الإعجاز[46]

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض.

وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد جهة رابعة هي: ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيبات مما دل على أنه منزل من علام الغيوب، وقد يدخل في هذه الجهة ما عده عياض في «الشفاء» وجها رابعاً من وجوه إعجاز القرآن وهو: [ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب]، فهذا معجز للعرب الأميين خاصة وليس معجزاً لأهل الكتاب، وخاص ثبوت إعجازه بأهل الإنصاف من الناظرين في نشأة الرسول ﷺ وأحواله، وليس معجزاً للمكابرين فقد قالوا [إنما يعلمه بشر] [النحل: ١٠٣] .

ثالثاً: الوحي تعريفه وحقيقته

1)- من الناحية اللغوية: يقول ابن فارس: (وحى) الواو والحاء والحرف المعتل: أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة. وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان. وأوحى الله تعالى ووحى. قال: وحى لها القرار فاستقرت، والوحي: السريع: والوحى: الصوت[47].

2)- من الناحية الاصطلاحية: أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: [فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً] [مريم/ ١١] فقد قيل: رمز. وقيل: أشار، وقيل: كتب، وعلى هذه الوجوه قوله: [وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً] [الأنعام/ ١١٢] ، وقوله: وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم [الأنعام/ ١٢١] فذلك بالوسواس المشار إليه بقوله: من شر الوسواس الخناس [الناس/ ٤] ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي، وذلك أضرب[48].

---

[45] ينظر؛ البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج2، ص91

[46] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص105

[47] ينظر؛ معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج6، ص93

[48] ينظر؛ المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ص159

3)- أنواع الوحي:

لو تتبعت استعمالات الوحي في القرآن والسنة لظهر سوى هذه الأنواع المذكورة من الوحي، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

الأول: الوحي إلى الأنبياء بأي نوع من أنواع الوحي غير الصريح؛ كالإلهام[49]؛ وسمّوه الوحي الإلهامي، وأنه يجيء على لسان ملك الإلهام، وقد فصله الشيخ محيي الدين ابن العربي في الباب الخامس والثمانين من كتابه «الفتوحات المكية»، وبين الفرق بينه وبين وحي الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها منثورة في الأبواب الثالث والسبعين، والثامن والستين بعد المائتين، والرابع والستين بعد ثلاثمائة، وجزم بأن هذا الوحي الإلهامي لا يكون مخالفاً للشريعة، وأطال في ذلك، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز، وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يسمى بالإلهام حجة؛ وعرفوه بأنه: "إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر"، وأبطلوا كونه حجة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوماً، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم، وقد تعرض لها النسفي في «عقائده»، وكل ما قاله النسفي في ذلك حق، ولا يقام التّشريع على أصول موهومة لا تنضبط[50]. أو الإلقاء في الرّوع، والمنام في مثل قوله تعالى: {فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين} [الصافات: ١٠٢]، بدلالة رد ابنه إسماعيل عليه السلام عليه بقوله: افعل ما تؤمر، فهو وحي[51].

الثاني: وحي الله لغير أنبيائه من البشر؛ كوحيه لأم موسى، في قوله: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين} [القصص: ٧].

4)- الشّبهات المثارة حول ظاهرة الوحي:

الشّبهة الأولى: اتّحاد مفهوم الوحي عند الأنبياء جميعاً.

أصل الشّبهة: لعلّ أصل الشّبهة ما ورد في الكتاب المقدّس[52] في تفسيره للوحي "هو حلول روح الله في روح الكتّاب الملهمين لإطّلاعهم على الحقائق الرّوحية، والأخبار الغيبية، من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئا من شخصياتهم، فلكلّ منهم نمطه في التأليف، وأسلوبه في التعبير".

مناقشة الشّبهة:

أ)- الالتباس المفاهيمي بين ظاهرة "الوحي" وظاهرة "الكشف".

الوحي بتعريفه هذا [الوارد في الكتاب المقدس] أضحى أبعد ما يكون عن الصّعيد الديني المتصل بالله، الآخذ عن الله، وأقرب ما يكون إلى مدلول الكشف الذي عرفت البشرية ألواناً صافية منه لدى الشّعراء الملهمين، والمتصوفين العارفين، وألواناً عكِرةً كدِرةً لدى الكهان والعرّافين، وأكثرهم من الدّجاجلة الكذّابين، لذا نرى لزاماً علينا [خشية أن نقع في اللّبس من أثر استعمال كلماتٍ في غير مواضعها] أن نقصي عن ظاهرة الوحي لفظ الكشف الذي كتّا فيه، وما يشبهه من ألفاظ الإلهام والحدس الباطني والشعور الدّاخلي أو "اللاشعور" التي

---

[49] ينظر؛ بن سليمان بن ناصر الطيار، المحرر في علوم القرآن، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي،الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ص68

[50] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج16، ص16

[51] ينظر؛ المحرر في علوم القرآن، مرجع سابق، ص68

[52] هو القاموس الذي وضعه بالعربية جورج بوست، طبع في المطبعة الأمريكية، بيروت، 1894م

يتغنى بها شبابنا المثقفون محاكاة للأعاجم والمستعجمين، ويحاولون بها أو ببعضها أن يفسروا بسذاجة عجيبة ظاهرة الوحي عند النبيئين[53].

ب)- الالتباس الدّلالي بين ظاهرة "الوحي" وظاهرة "الكشف"

1* يخلو الكشف من الدّلالة النفسية الواضحة المحدّدة؛ لأنه غالباً ما يكون ثمرةً من ثمار الكدّ والجهد، أو أثراً من آثار الرّياضة الرّوحية، أو نتيجة للتفكير الطّويل، فلا ينشيء في النّفس يقيناً كاملاً أو شبه كامل، بل يظلُّ أمراً شخصيًّا ذاتياً لا يتلقى الحقيقة من مصدرٍ أعلى وأسمى.

2* الكشف كالإلهام يخلو من ألفاظ علم النّفس المحدثة التي ما تبرح حتى عند القائلين بها موغلة في الإبهام، لاحتلالها (حاشية اللاشعور)[54]؛ وهي: حاشية [كما يوحي اسمها] أبعد ما تكون عن حالات الوعي والشعور، فإذا قيل في إنسانٍ: (إنه من أولي الكشف والإلهام) لم يصل به ذلك إلى درجة النبوة والوحي؛ لأنّ في كلّ وحيٍ وعياً[55]، وفي كلّ نبوة شعوراً بمعناها وإدراكاً لمغزاها، وإنما يرمى [باللاوعي] من فقد الوعي، ويوصم [باللاشعور] من حُرم الشّعور.

3* بالنظر إلى طبيعة الحقائق الدينية

إنّ طبيعة الحقائق الدينية والأخبار الغيبية في ظاهرة [الوحي] تأبي الخضوع لهذه الأساليب [اللاشعورية] التي تستشفّ حجاب المجهول بالفراسة الذّكية الخفية، والحدس الباطني السريع، مثلما تأبى الخضوع لمقاييس الحسّ الظاهرة التي تخترق حرمات المجهول بالأدلة المنطقية والاستنباط المتروي البطيء[56]، وإنما تخضع لتصور عُلوي بين ذاتين: ذات متكلمة آمرة معطية، وذاتٌ مخاطبة بأمور متلقية[57].

4* أدلّة دحض الشّبهة :

1)- كشف النبيّ ﷺ النّقابَ صراحةً عن صورتين من الوحي:

إحداهما: عن طريق إلقاء القول الثّقيل على قلبه، ولديه يسمعُ صوتاً متعاقباً، متداركاً كصوت الجرس المجلجل[58]، وهذه أشدّ وطأ وأثقلُ قولاً كما قال تعالى: [إنا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً] [المزمل:4]، حتّى كان يصحبُ الوحيَ رشحُ الجبين عرقاً، كما قالت السّيدة عائشة رضي الله عنها: "ولقد رأيتهُ ينزل عليه الوحي في اليوم الشّديد البرد فيفصمُ عنه، وإنّ جبينه ليتفصّدُ عرقاً"، بل كانت هذه الصورة من الوحي تبلغُ أحيانًا من الشّدة والثقل حدًّا يجعل راحلته تبركُ به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء مرّة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها".

الثانية: عن طريق تمثل جبريل له بصورة إنسانٍ يشاكله في المظهر ولا ينافره، ويطمئنه بالقول ولا يرعبه، وهذه الصورة أخف وطأ وألطف وقعاً، يكونُ فيها تشابه كلي بين الملقي والمتلقي.

---

[53] ينظر؛ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص26

[54] ينظر؛ الظاهرة القرآنية، ص161

[55] ينظر؛ المرجع نفسه، ص139

[56] ينظر؛ النبأ العظيم، ص34

[57] ينظر؛ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص27

[58] يرجع؛ الإتقان، ج1، ص71

وفي كلتا الصورتين يحرصُ النبي ﷺ على وعي ما أوحي إليه، إذ قال في الأولى ﷺ: "فيفصمُ عني وقد وعيت ما قال"، وفي الثانية: "فيُكلّمني فأعي ما يقول"، وبهذا الوعي الكامل لم يخلط ﷺ مرّة واحدة طيلة العصر القرآني الذي يضمّ كل مراحل التنزيل.

2)* أمر النبي ﷺ عدم كتابة شيء من الأحاديث غير القرآن الكريم لعلّة الاختلاط؛ ومعلومٌ أنّ كون الرسول - ﷺ- أمر بعدم كتابة السنة فليس ذلك دليلا على عدم حجيتها؛ وإنما كان ذلك لأسباب تقتضيها المصلحة، ومن هذه الأسباب: أن النهي كان أولاً، وذلك للتفرغ لحفظ القرآن الكريم والاطمئنان إلى عدم اختلاطه بغيره[59].

3)* تمييز النبي ﷺ بين تجربته الدينية القطعية وتجربته الإنسانية الظنية؛ والتي يستفادُ منها أنّ ما يصدُر عن الرّسول ﷺ – نوعان: نوع يفعله بمقتضى بشريته - ﷺ - دون أن يوحى إليه فيه بشيء، وهذا النوع لا صلة له بالتشريع، وذلك في جل شؤونه المعيشية التي لا يتعلق شيء منها بالدين حلا أو حرمة ومن ذلك رأيه في تأبير النخل. ونوع آخر يفعله - ﷺ - بمقتضى كونه بشرا رسولا، وفعله هذا إنما يقوم على وحي من قبل الله - تعالى. والأمران الأولان: تأبير النخل، ومنزل الجيش في بدر، من النوع الأول الذي فعله رسول الله - ﷺ - برأيه. والأمر الثالث اجتهد فيه الرسول - ﷺ - رأيه وآراء محل مشورته من الصحابة - رضوان الله عليهم - فنزل الوحي مصوبا ومبينا الحكم الصحيح[60].

4)*احتباس الوحي عنه ﷺ؛ واحتباس الوحي عن النبيّ ﷺ وقع مرّتين: أولاهما: قبل نزول سورة المدثر أو المزمل، أي بعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث على الخلاف في الأسبق من سورتي المزمل والمدثر، وتلك الفترة هي التي خشي رسول الله ﷺ أن يكون قد انقطع عنه الوحي، وهي التي رأى عقبها جبريل على كرسي بين السماء والأرض كما تقدم في تفسير سورة المدثر، وقد قيل: إنّ مدة انقطاع الوحي في الفترة الأولى كانت أربعين يوماً ولم يشعر بها المشركون لأنها كانت في مبدأ نزول الوحي قبل أن يشيع الحديث بينهم فيه وقبل أن يقوم النبيء ﷺ بالقرآن ليلاً، وثانيتهما: فترة بعد نزول نحو من ثمان سور، أي السور التي نزلت بعد الفترة الأولى فتكون بعد تجمع عشر سور، وبذلك تكون هذه السورة حادية عشرة فيتوافق ذلك مع عددها في ترتيب نزول السور[61].

رابعاً: التنجيم

1)* تنزلات القرآن

شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات[62]:

أ- التنزل الأول إلى اللوح المحفوظ، ودليله قول سبحانه: {بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ}، وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمها إلا الله تعالى ومن أطلعه على غيبه، وكان جملةً لا مفرقاً؛ لأنّه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه، ولأن أسرار تنجيم القرآن على النبي ﷺ لا يعقل تحققها في هذا التنزل.

الحكمة منه: وحكمة هذا النزول ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وإقامته سجلاً جامعاً لكل ما قضى الله وقدر، وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين.

---

[59] ينظر؛ على عبد الباسط مزيد، منهاج المحدثين في القرن الأول الهجري وحتى عصرنا الحاضر، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، ص25

[60] ينظر؛ محمود محمد مزروعة، شبهات القرآنيين حول السنة النبوية، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص62

[61] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج30، ص396

[62] يرجع، مناهل العرفان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص43

ب - التنزل الثاني للقرآن كان هذا التنزل الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا، والدّليل عليه قوله سبحانه في سورة الدّخان: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة}، وفي سورة القدر {إنا أنزلناه في ليلة القدر}، وفي سورة البقرة {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن}؛ وقد أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ[63]، والحكمة في هذا النزول تفخيم أمره وأمر من نزل عليه؛ وذلك بإعلام سكان السموات السبع أنّ هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكنّ الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقاً تشريفاً للمنزل عليه[64].

ج - التنزل الثالث للقرآن هذا هو واسطة عقد التنزلات؛ لأنّه المرحلة الأخيرة التي منها شعَّ النّور على العالم ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: {نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين} .

2)* الحكمة من تنجيم القرآن

يلاحظ أن لنزول القرآن منجماً- أى مفرقاً- حكما جليلة يعرفها أهل العلم والفضل، ويمكن أن نجمل هذه الحكم فيما يلى[65]:

الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد النبى ﷺ قال تعالى: [ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥)] [الإسراء: 75]؛ والتثبيت: جعل الشيء ثابتاً، أي متمكنا من مكانه غير مقلقل ولا مقلوع، وهو مستعار للبقاء على حاله غير متغير، وعدي التثبيت إلى ضمير النبيء ﷺ الدّال على ذاته، والمراد تثبيت فهمه ورأيه، وهذا من الحكم على الذات، والمراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، مثل: [حرمت عليكم أمهاتكم] [النساء: ٢٣]، فالمعنى: ولولا أن ثبتنا رأيك، فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين لقاربت أن تركن إليهم[66].

الحكمة الثانية: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين، فالعرب كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون، قال جل شأنه: [هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم (٢)] [الجمعة: 02] والمراد ب الأميين: العرب لأن وصف الأمية غالب على الأمة العربية يومئذ[67].

الحكمة الثالثة: مسايرة الحوادث والطوارئ فى تجددها وتفرقها. فكلما جد منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وفصل لهم الله من أحكامه ما يوافقه.

---

[63] رواه الهيثمي عن الطبراني؛ ينظر؛ أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م، ج7، ص157، رقم الحديث: 11618

[64] حكى ذلك السيوطي عن أبي شامة، ينظر: كتاب الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص149

[65] يرجع؛ محمّد إبراهيم الحفناوي، دراسات أصولية في القرآن الكريم، الناشر: مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية – القاهرة، عام النشر: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ص477

[66] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج15، ص174

[67] ينظر؛ المرجع نفسه، ج28، ص208

المحاضرة الثالثة: مراحل جمع القرآن؛ معايير ترتيب سور وآيات القرآن (وقفية أم اجتهادية)

أولاً: معنى لفظ [جمع]

المعاني اللغوية للفظ [الجمع]: قال ابن فارس: (جمع) الجيم والميم والعين أصل واحد، يدل على تضام الشيء. يقال جمعت الشيء جمعاً، والجماع الأشابة من قبائل شتى، وقال أبو قيس: ويقال للمرأة إذا ماتت وفي بطنها ولد: ماتت بجمع. ويقال هي أن تموت المرأة ولم يمسسها رجل. ومنه قول الدهناء " إني منه بجمع "[68]، وقريبٌ من التعريف اللغوي المعنى الاصطلاحي لمصطلح [الجمع] الذي عرّفه صاحبُ المفردات بقوله: الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، يقال: جمعته فاجتمع[69]، وقال عز وجل:[وجمع الشمس والقمر] [القيامة/ ٩] ، و[جمع فأوعى] [المعارج/ ١٨] ، [جمع مالا وعدده] [الهمزة/ ٢]

ثانياً: إطلاقات [جمع القرآن]

أطلق علماء الشّريعة [جمع القرآن] وقصدوا به أربعة معانٍ[70]:

المعنى الأول: حفظ القرآن في الصّدور[71].

وجمع القرآن الكريم وفق هذا المعنى كان على مستويين:

1)* حفظ النبيّ ﷺ :

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينتظر نزول الوحي بلهفة وشوق، وكانت همّته بادئ الأمر تنصرف إلى حفظ كلام الله المنزل وفهمه، ثم يقرؤه على الناس على مكث، ليحفظوه ويستظهروه في صدورهم، لأنه صلّى الله عليه وسلّم كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، وقد بعثه الله في أمة تغلب عليها الأميّة، قال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ [الجمعة: ٢]. وقد بلغ من حرص النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على حفظ القرآن: أنه كان يردّده أثناء نزول الوحي عليه مخافة أن تفوته كلمة أو ينسى حرفاً، حتى طمأنه ربّه عزّ وجلّ وتكفّل له بحفظه في صدره وعدم نسيانه بعد سماعه من الوحي، قال تعالى: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ [القيامة: ١٦ - ١٩]. وقال تعالى: وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [طه: ١١٤]، وقال سبحانه: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى- [الأعلى: ٦]، ومن هنا نستطيع أن نعلم أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان أوّلَ جامع للقرآن في صدره الشريف وسيّد الحفّاظ، ومرجع الصحابة في حفظهم للقرآن وفهمهم له، وكان يحيي بالقرآن ليله ويزيّن به صلاته، وكان جبريل يعارضه (يدارسه) إياه في كل عام مرة في رمضان، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين، عن فاطمة بنت رسول الله صلى

---

[68] ينظر؛ معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج1، ص479

[69] ينظر؛ المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ص516

[70] ينظر؛ أحمد بن سليمان أيوب، ونخبة من الباحثين، موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام، إشراف: سليمان الدريع، الناشر: دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع (دار وقفية دعوية)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، ج5، ص7

[71] يرجع؛ مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، الواضح في علوم القرآن، الناشر: دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص72-73

الله عليه وسلم «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي وإنك أول أهل بيتي لحاقا بي، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السّلف أنا لك»[72] .

2)* حفظ الصّحابة الكرام للقرآن الكريم

أما الصّحابة الذين كان يتنزل الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعلمهم ومشاهدتهم، فكان لهم الأسوة الحسنة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالإسراع إلى حفظ القرآن واستظهار آياته، وقد ساعدهم نزول القرآن منجّماً على الحفظ [كما علمت]، وأن الأمة العربية قوية الذاكرة بالسّجية، يساعدها على ذلك بيئة صافية بسيطة، كما أن الأميّ يحاول أن يعوّض بالحفظ ما فاته بالقراءة والكتابة، والنصوص الواردة في كتب السير والسنن تدلّ على أن الصحابة كانوا يتنافسون في حفظ القرآن، ويحفّظونه أزواجهم وأولادهم، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يذكي فيهم روح العناية بالقرآن، فيبعث إلى القبائل من أصحابه من يعلّمهم ويقرئهم القرآن[73] .

المعنى الثاني: تأليف سور القرآن.

قد يطلقُ [جمع القرآن] ويُقصد به تأليف سور القرآن

1)* السورة والتأليف

تختلف السّورة عن الآية، فالسّورة تطلق على طائفة من الآيات المتصلة ذات بداية ونهاية، ووفق ترتيب محكم دقيق، وكلمة السورة مأخوذة من سور البناء المكون من قطع متلاحقة، أو من سور المدينة الذي يحيط بأبنيتها المجتمعة، أو من السوار لإحاطته بالساعد[74]، قال ابن جني: «إنما سميت سورة لارتفاع قدرها، لأنها كلام الله تعالى، وفيها معرفة الحلال والحرام، ومنه رجل سوار أي معربد، لأنه يعلو بفعله ويشتط، ويقال: أصلها من السورة وهي الوثبة».

2)* استعمال مركب [جمع القرآن] بمعنى [تأليف سور القرآن]

قال ابن فارس: «جمع القرآن على ضربين: أحدهما: تأليف السور كتقديم السّبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولته الصحابة، وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السور، فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه»[75]، وفي هذا النقل يتّضح استخدام لفظ [الجمع] ويرادُ به [تأليف السور] أو [تأليف الآي]، وقيل: إنّ جمع القرآن لم يكن مرة واحدة فقد جمع بعضه بحضرة النبي ﷺ ثم جمع بحضرة أبي بكر الصديق والجمع الثالث وهو ترتيب السّور كان بحضرة عثمان، واختلف في الحرف الذي كتب عثمان عليه المصحف: فقيل حرف زيد بن

---

[72] ينظر؛ أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، صحيح الجامع الصغير وزياداته الناشر: المكتب الإسلامي، ج1، ص412، رقم الحديث: 2053

[73] ينظر؛ الواضح في علوم القرآن، مرجع سابق، ص73

[74] ينظر؛ مُحَمَّد فاروق النبهان، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، الناشر: دار عالم القرآن – حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ص135

[75] ينظر؛ المدخل إلى علوم القرآن الكريم، مرجع سابق، ص135

ثابت وقيل حرف أبي بن كعب؛ لأنه العرضة الأخيرة التي قرأها رسول الله ﷺ وعلى الأول أكثر الرواة، ومعنى حرف زيد أي قراءته وطريقته[76].

المعنى الثالث: تأليف الآيات في السورة الواحدة من القرآن الكريم[77].

أما تأليف الآي بعضها عقب بعض في السورة الواحدة من القرآن الكريم؛ وهو ما يصطلح عليه لفظ [جمع القرآن] بالمعنى الثالث فقد كان بتوقيف من النبيء ﷺ حسب نزول الوحي، ومن المعلوم أنّ القرآن نزل منجماً آيات، فربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورة كاملة...، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعيناً، بحيث لو غير عنه إلى ترتيب آخر لنزل عن حدّ الإعجاز الذي امتاز به، فلم تختلف قراءة النبيء صلى الله عليه وسلم في ترتيب آي السور على نحو ما هو في المصحف الذي بأيدي المسلمين اليوم، وهو ما استقرت عليه رواية الحافظ من الصحابة عن العرضات الأخيرة التي كان يقرأ بها النبيء ﷺ في أواخر سني حياته الشريفة، وحسبك أنّ زيد بن ثابت حين كتب المصحف لأبي بكر لم يخالف في ترتيب آي القرآن، وعلى ترتيب قراءة النبيء ﷺ في الصلوات الجهرية وفي عديد المناسبات حفظ القرآن كل من حفظه كلاًّ أو بعضاً، وليس لهم معتمد في ذلك إلا ما عرفوا به من قوة الحوافظ، ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة، وإنما كان كتاب الوحي يكتبون ما أنزل من القرآن بأمر النبيء ﷺ، وذلك بتوفيق إلهي. ولعل حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عند ما يحدث لهم شك أو نسيان ولكن ذلك لم يقع، ولما جمع القرآن في عهد أبي بكر لم يؤثر عنهم أنهم ترددوا في ترتيب آيات من إحدى السور ولا أثر عنهم إنكار أو اختلاف فيما جمع من القرآن فكان موافقا لما حفظته حوافظهم، قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ. وقال ابن الأنباري كانت الآية تنزل جواباً لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله ﷺ على موضع الآية، واتساق الحروف واتساق الآيات واتساق السور كله عن رسول الله ﷺ، فلهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل.

المعنى الرابع: كتابة القرآن الكريم في الصّحف والمصاحف[78].

إن القرآن الكريم وفق هذا المعنى جُمع ثلاث مرات:

1)* الجمع الأول: كتب كله في عهد النبي ﷺ لكن غير مجموع في موضوع واحد، ولا مُرتّب السّور، بل كان مفرقاً في العسب[79] واللخاف[80] والرقاع[81] والأقتاب[82] ونحوها، مع كونه محفوظاً في الصُّدور - فقد روي الحاكم في المستدرك عن زيد بن ثابت:"كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عَلَيه وسَلم نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ"[83]،

---

[76] ينظر؛ البرهان في علوم القرآن، ج1، ص256

[77] يرجع، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص79

[78] ينظر؛ مُحَمَّد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الشافعي الخطاط (ت ١٤٠٠هـ)، تاريخ القرآن الكريم، نشره: مصطفى مُحَمَّد يغمور بمكة، طبع للمرة الأولى: بمطبعة الفتح بجدة - الحجاز عام ١٣٦٥ هـ و ١٩٤٦ م، ص23 وما بعدها.

[79] (عَسَبَ) الْعَيْنُ وَالسِّينُ وَالْبَاءُ كَلِمَاتٌ ثَلَاثٌ مُتَفَرِّدَةٌ بِمَعْنَاهَا، لَا يَكَادُ يَتَفَرَّعُ مِنْهَا شَيْءٌ. فَالْأُولَى: طَرْقُ الْفَرَسِ وَغَيْرِهِ، وَالثَّانِيَةُ عَسِيبُ الذَّنَبِ، وَالثَّالِثَةُ نَوْعٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَطِيرُ، ينظر: مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج4، ص317، وقيل: العُسْب: العُسْبُ بضمٍ فسكون، وبضمتين

وعنه أيضاً قال: «كُنْتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا فَرَغْتُ قَالَ اقْرَأْ، فَأَقْرَؤُهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ سَقْطٌ أَقَامَهُ»[84] ، وروى البخاري عن البراء قال: لَمَّا نزلت: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل اللَّهِ}. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ادع لنا زيدا، وليجئ باللوح والدواة والكتف، أو: الكتف والدواة). ثم قال: (اكتب: {لا يستوي القاعدون}). وخلف ظهر النبي ﷺ عمرو بن أم مكتوم الأعمى، قال: يا رسول الله فما تأمرني، فإني رجل ضرير البصر؟ فنزلت مكانها: [لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله غير أولي الضرر][85] قال الحارث المحاسبي في كتاب [فهم السنن]: "كتابة القرآن ليست بمحدثة فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا في الرّقاع والأكتاف والعسب"، ثم إنّ عدم جمعه في مجلد في حياته عليه الصلاة والسلام كان لأمرين:

(الأول) الأمن فيه من وقوع خلاف بين الصّحابة لوجوده ﷺ بين أظهرهم.

(الثاني) خوف نسخ شئ منه بوحي قرآن بدّله.

وإلى ما تقدم اشار العلامة الشيخ مُحَمَّد العاقب الشنقيطي [رحمه الله] بقوله:

لم يجمع القرآن في مجلد	على الصحيح في حياة أحمد
للامن فيه من خلاف ينشأ	وخيفة النسخ بوحى يطرأ
وكان يكتب على الاكتاف	وقطع الادم واللخاف
وبعد إغماض النبي فالاحق	أن أبا بكر بجمعه سبق
جمعه غير مرتب السور	* بعد إشارة إليه من عمر
ثم تولى الجمع ذو النوزين	فضمه ما بين دفتين
مرتب السور والآيات	مخرجا بأفصح اللغات

(العُسُب) أيضاً جمع [عَسِيبٍ] وهو: جريدُ النّخل، كانوا يكشطون الخوص، ويكتبون في الطرف العريض، ينظر؛ تاريخ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص23

[80] اللّخاف: (لَخَفَ) اللَّامُ وَالْخَاءُ وَالْفَاءُ كَلِمَتَانِ، إِحْدَاهُمَا اللِّخَافُ، وَهِيَ حِجَارَةٌ بِيضٌ رِقَاقٌ، وَاحِدَتُهَا لَخْفَةٌ، وَالْأُخْرَى قَوْلُهُمْ: لَخَفَهُ بِالسَّيْفِ: ضَرَبَهُ، ينظر: مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج5، ص241

[81] الرّقاع: (رَقَعَ) الرَّاءُ وَالْقَافُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى سَدِّ خَلَلٍ بِشَيْءٍ، يُقَالُ رَقَعْتُ الثَّوْبَ رَقْعًا؛ وَالْخِرْقَةُ رُقْعَةٌ، فَأَمَّا قَوْلُهُمْ لِوَاهِي الْعَقْلِ: رَقِيعٌ، فَكَأَنَّهُ قَدْ رُقِعَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرْقِعُ إِلَّا الْوَاهِي الْخَلَقَ، وَيُقَالُ رَقَعَهُ، إِذَا هَجَاهُ، وَقَالَ فِيهِ قَبِيحًا، كَأَنَّ ذَلِكَ صَارَ كَالرُّقْعَةِ فِي جَسَدِهِ، يُقَالُ: لَأُرَقِّعَنَّهُ رَقْعًا رَصِينًا، وَأَرَى فِي فُلَانٍ مُتَرَقَّعًا، أَيْ مَوْضِعًا لِلشَّتْمِ، ينظر: مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج2، ص469

[82] الأقتاب: (قَتَبَ) الْقَافُ وَالتَّاءُ وَالْبَاءُ؛ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى آلَةٍ مِنْ آلَاتِ الرِّحَالِ أَوْ غَيْرِهَا، فَالْقَتَبُ لِلْجَمَلِ مَعْرُوفٌ، وَيُقَالُ لِلْإِبِلِ تُوضَعُ عَلَيْهَا أَحْمَالُهَا: قَتَوِيَّةٌ. قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: [الْقَتَبُ] : قَتَبَ الْبَعِيرُ، إِذَا كَانَ مِمَّا يُحْمَلُ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ آلَةِ السَّانِيَةِ فَهُوَ قِتْبٌ بِكَسْرِ الْقَافِ، وَأَمَّا الْأَقْتَابُ فَهِيَ الْأَمْعَاءُ، وَاحِدُهَا قَتْبٌ، وَتَصْغِيرُهَا قُتَيْبَةٌ، وَذَلِكَ عَلَى مَعْنَى التَّشْبِيهِ بِأَقْتَابِ الرِّحَالِ، ينظر: مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج5، ص59

[83] أخرجه ابن حبان في صحيحه؛ ينظر: الكتاب: صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها، أبو حاتم مُحَمَّد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت ٣٥٤ هـ)، المحقق: مُحَمَّد علي سونمز، خالص آي دمير، الناشر: دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، ج6، ص429، رقم الحديث:5561

[84] رواه السّيوطي في تدريب الراوي؛ ينظر عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تدريب الرّاوي في شرح تقريب النواوي، حقّقه: أبو قتيبة نظر مُحَمَّد الفاريابي، الناشر: دار طيبة، ج1، ص508

[85] أخرجه البخاري في صحيحه؛ ينظر؛ أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري، المحقق: مصطفى ديب البغا، الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ج4، ص909

ثالثاً: ترتيب سور وآيات القرآن الكريم (توقيفي أم اجتهادي)

1)* ترتيب وضع السور في المصحف

اختُلف في ترتيب السور هل هو توقيفي أم باجتهاد الصحابة على أقوالٍ ثلاث:

الأول: ما ذهب إليه جماعة من العلماء، وهو أنّ ترتيب السّور بتوقيف من النبي ﷺ، فلم توضع سورة في موضعها من المصحف إلا بناء على أمر النبي ﷺ، وتعليمه، أو برمزه وإشارته، على حسب ما فهموه من تلاوته ﷺ، وممن ذهب إلى هذا أبو جعفر بن النحاس والكرماني، وابن الحصار وأبو بكر الأنباري، قال أبو بكر الأنباري: "أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السّورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتّساق السورة كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن"، وقال الطيبي: "أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقا على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ"[86].

الرأي الثاني: أن الترتيب كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم نسب هذا القول السيوطي إلى الجمهور وإلى الإمام مالك وأبي بكر الطيب في أرجح قوليه؛ قال ابن فارس: "جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين فهذا هو الذي تولته الصحابة وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السور فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه. ومما استدل به لذلك اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور فمنهم من رتبها على النزول وهو مصحف علي كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم ن ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكي والمدني وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران على اختلاف شديد وكذا مصحف أبي وغيره"[87].

قال السيوطي: ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتّبت ولاء، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء، وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء، وأخرت طس عن القصص، والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السّور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته سوراً ولاء على أن ترتيبها كذلك وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب فلعله فعل ذلك لبيان الجواز[88].

---

[86] ينظر؛ المدخل لدراسة القرآن الكريم، مرجع سابق، ص325

[87] ينظر؛ الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص216

[88] ينظر؛ الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص220

المحاضرة الرّابعة : مكونات النص القرآني: اللفظة، العبارة، الآية، السورة.

أولاً: مفهوم النّص لغة

(نص) النّون والصّاد أصل صحيح يدل على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء، منه قولهم: "نصَّ الحديثُ إلى فلان": "رفعه إليه"، والنصّ في السير "أرفعه"، يقال: "نصصت ناقتي"، و"سير نصّ ونصيص"، و"منصة العروس" منه أيضاً، و"بات فلان منتصاً على بعيره"، أي "منتصباً"[89]، والنصّ والنصيص: "السّير الشديد" و"الحثّ"، ولهذا قيل: "نصصت الشيء؛ رفعته"، وأصل النّص "أقصى الشيء وغايته"، ثم سمي به ضرب من السير سريع، والنّص: "الإسناد إلى الرئيس الأكبر"، والنصّ "التوقيف"، والنصّ "التّعيين على شيء ما"، ونصّ الأمر "شدته"[90].

ثانياً: مفهوم النصّ القرآني

لقد راج عند كثير من الأدباء والمفكرين إطلاق لفظ [النص] على القرآن الكريم بغية الوصول إلى قضية مساواة النصوص القرآنية بالنّصوص النثرية والشّعرية، فيصيرُ بذلك النص القرآني نصاً أدبياً مات صاحبه تماثل النصوص الشّعرية، ويصير بذلك ديواناً للعرب باعتبار الشعر ديوان العرب، وما جاز على النص الشعري جاز على النص القرآني، وهذا أمرٌ خطيرٌ للغاية وجب الانتباه له، وإلا ستصير الآيات والأحاديث لا تختلف عن أي نص بشري يتأثر بالتّاريخ والبيئة، وستصير ثمرة تفاعل جدلي بين اللغة والواقع وانعكاساً له[91]، لذا فإنّ أيّ محاولة لتحديد النصّ منفصلًا عن الخلفيات المعرفية التي تسند هذا التحديد تعدّ محاولة محكومة بالفشل ومنتهية إلى سراب لا تتبيّن فيه معالم النصّ، الأمر الذي يؤدي إلى الكثير من الخلط والمزج بين رؤى وتوجّهات نظرية لا يجمع بينها جامع؛ لذلك تكون مقاربة مفهوم النصّ باستحضار التعدّد الواقع فيما يسند هذا التحديد من رؤى واتجاهات نظرية، بدءًا ينبغي أن يُنْظَر إلى النصّ من جهتين: علاقته بالنصوص الخارجية / تفاعله مع نفسه[92].

ثالثاً: المنهج الأصولي في قراءة النص القرآني

إنّ أهم الحقول المعرفية التي تناولت مفهوم النصّ تراثيًّا تؤولُ إلى علميْ: الفقه وأصوله، ولقد كان لهذين العِلْمين ارتباط وثيق باللغة وعلومها، إلا أنّ القضايا التي تناولها الأصوليون تجاوزت ما تحقّق عند أهل اللغة؛ منها توظيفهم لنسق اصطلاحي ينسجم ونحو النصّ لا الجملة، بالرغم من أنّ التركيز الأساس كان منصبًّا على ما يفيد الحكم[93]، ولبيان أهم مرتكزات المنهج الأصولي في قراءة النص القرآني نستعرض المعالم الآتية:

1)- اشتغل علماء أصول الفقه في دراستهم للنص القرآني بالمباحث اللغوية؛ الشيء الذي دفع بهم إلى استقراء أساليب، وتراكيب اللغة العربية، مستخلصين من ذلك مجموعة من القواعد والضّوابط، واعتبروا التقيد بها شرطاً ضرورياً في تفسير النص، وتحديد دلالته لغاية استنباط الحكم الشّرعي منه[94].

---

[89] ينظر: مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج5، ص356

[90] ينظر: لسان العرب، مرجع سابق، ج7، ص98

[91] يرجع؛ محمّد رحماني، قضية قراءة النص القرآني، مخطوط، دط، دت، ص19

[92] ينظر؛ مقال: كريم التايدي، مفهوم النصّ، ونقد المقاربة التاريخية للقرآن الكريم، مركز تفسير للدّراسات القرآنية، مقالات عامة.

[93] ينظر؛ المرجع نفسه.

[94] ينظر؛ قضية قراءة النص القرآني، مرجع سابق، ص22

2)- تطور البحث اللغوي على يد علماء أصول الفقه في أمهات الكتب مثل: البرهان للجويني، والمستصفى للغزالي والمعتمد لأبي الحسين البصري، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الظاهري، وإحكام الفصول في أحكام الأصول لأبي الوليد الباجي، والمحصول في علم الأصول للفخر الرازي، والبحث المحيط للزركشي-، واشترط الأصوليون دراية الناظر في علم الأصول بفنون العربية.

3)- عربية النص القرآني: فعلى الأصولي أن ينظر في عربية النص القرآني ابتداءً يقول الشاطبي في ذلك : "القرآن الكريم ليس فيه من طرائق كلام العجم شيء، والسنة عربية, لا بمعنى أن القرآن يشتمل على ألفاظ أعجمية في الأصل أو لا يشتمل؛ لأنّ هذا من علم النحو واللغة، بل بمعنى أنه في ألفاظه ومعانيه وأساليبه عربي، بحيث إذا حقق هذا التحقيق سلك به في الاستنباط منه، والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة؛ فإن كثير من الناس يأخذون أدلة القرآن بحسب ما يعطيه العقل فيها، لا بحسب ما يفهم من طريق الوضع، وفي ذلك فساد كبير وخروج عن مقصود الشارع"[95].

4)- اشتراط العلم بالعربية في الاجتهاد في تفسير النّص القرآني؛ يقول الشاطبي في ذلك: "الاجتهاد إن تعلق بالاستنباط من النصوص، فلا بد من اشتراط العلم بالعربية، وإن تعلق بالمعاني من المصالح والمفاسد مجردة عن اقتضاء النصوص لها أو مسلمة من صاحب الاجتهاد في النصوص؛ فلا يلزم في ذلك العلم بالعربية، وإنما يلزم العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلاً"[96].

5)- وحدة القضية في الاستدلال: تفطّن علماء الأصول لهذا الأمر، وقالوا بأنّ الاقتصار على نص واحد، سواء في الاستدلال أو في التفسير سيؤدّي لا محالة إلى كثير من المشاكل.

رابعاً: مبتكرات القرآن

أ)- أسلوب القرآن الكريم أسلوب خاص مخالف لأسلوب الشعر وأسلوب الخطابة.

يقول في ذلك ابن عاشور: "فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة، وقد نبه عليه العلماء المتقدمون، وأنا أضم إلى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة، بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام"[97].

ب)- تضمن القرآن أسلوب التقسيم والتّسوير.

ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف[98].

ج)- تضمن القرآن الأسلوب القصصي.

والأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقوداً من أدب العربية إلا نادراً، كان في بعض الشعر كأدبيات النابغة في [الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها]، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في

---

[95] ينظر؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ج1، ص39

[96] ينظر؛ المرجع نفسه، ج5، ص124

[97] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص120

[98] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص120

سورة الأعراف من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف: [ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار] إلخ وفي سورة الحديد: [فضرب بينهم بسور] الآيات[99].

د)- التمثيل

قد كان في أدب العرب "الأمثال" وهي: حكاية أحوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التي قيلت فيها أو قيلت لها؛ المسماة بالأمثال، فكانت تلك الجمل مشيرة إلى تلك الأحوال، إلا أنها لما تداولتها الألسن في الاستعمال، وطال عليها الأمد نسيت الأحوال التي وردت فيها، ولم يبق للأذهان عند النّطق بها إلا الشعور بمغازيها التي تقال لأجلها؛ أما القرآن فقد أوضح الأمثال وأبدع تركيبها كقوله تعالى: [مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف] [إبراهيم: ١٨] وقوله: [ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق] [الحج: ٣١] وقوله: [والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن][100].

هـ)- الفواصل والفواتح

لم يلتزم القرآن أسلوباً واحداً، واختلفت سوره وتفننت، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصّة، فإنّ بعضها بني على فواصل وبعضها ليس كذلك، وكذلك فواتحها، منها ما افتتح بالاحتفال: [كالحمد]، و[يا أيها الذين آمنوا] [البقرة: ١٠٤] ، و[ألم ذلك الكتاب] [البقرة: ١، ٢] ، وهي قريب مما نعبر عنه في صناعة الإنشاء [بالمقدمات]. ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو: [الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم] [مُحَمَّد: ١] و[براءة من الله ورسوله] [التوبة: ١].

و)- الإيجاز والإطناب

من أبدع الأساليب في كلام العرب "الإيجاز"؛ وهو متنافسهم وغاية تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان- مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني- فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معانٍ متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه، وبعضها إن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر فتحريك الأذهان إليه وإخطاره بها يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء[101]، وسلك القرآن مسلك الإطناب لأغراض من البلاغة ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الروع في قلب السامع وهذه طريقة عربية[102].

ز)- تسمية أجزاءه [سورة، آية، ثمن..]

تسمية هذه الأجزاء آيات هو من مبتكرات القرآن[103]، قال تعالى: [هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات] [آل عمران: ٧] وقال: [كتاب أحكمت آياته ثم فصلت] [هود: ١].

خامساً: مكونات النص القرآني

1)- الآية :

أ)- تعريف الآية وخصائصها

---

[99] ينظر؛ المرجع السابق، ج1، ص120

[100] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص121

[101] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص121

[102] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص123

[103] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص74

الآية: هي مقدارٌ من القرآن مركب، ولو تقديراً أو إلحاقاً، مثال: التقدير قوله تعالى: [مدهمتان] إذ التقدير: "هما مدهمتان"، أما إلحاقا: فلإدخال بعض فواتح السور من الحروف المقطعة فقد عد أكثرها في المصاحف آيات ما عدا:[ألر، وألمر، وطس]، وذلك أمر توقيفي وسنة متبعة ولا يظهر فرق بينها وبين غيرها[104].

وإنما سميت [آية] لأنها دليل على أنها موحى بها من عند الله إلى النبيء ﷺ لأنها تشتمل على ما هو من الحد الأعلى في بلاغة نظم الكلام، ولأنها لوقوعها مع غيرها من الآيات جعلت دليلاً على أنّ القرآن منزل من عند الله، وليس من تأليف البشر إذ قد تحدى النبي به أهل الفصاحة والبلاغة من أهل اللسان العربي فعجزوا عن تأليف مثل سورة من سوره، فلذا لا يحق لجمل التوراة والإنجيل أن تسمى آيات إذ ليست فيها هذه الخصوصية في اللغة العبرانية والآرامية[105].

ب)- تفاوت الآيات في الطّول

وآيات القرآن متفاوتة في مقادير كلماتها فبعضها أطول من بعض، ولذلك فتقدير الزمان بها في قولهم [مقدار ما يقرأ القارئ خمسين آية] مثلاً، تقدير تقريبي، وتفاوت الآيات في الطول تابع لما يقتضيه مقام البلاغة من مواقع كلمات الفواصل على حسب ما قبلها من الكلام[106].

ج)- عددُ آيات القرآن

فأما ما اختلف السلف فيه من [عدد آيات القرآن] بناء على الاختلاف في نهاية بعضها، فقد يكون بعض ذلك عن اختلاف في الرواية، وقد يكون بعضه عن اختلاف الاجتهاد:

قال أبو عمرو الداني في كتاب «العدد» : أجمعوا على أن عدد آيات القرآن يبلغ ستة آلاف آية، واختلفوا فيما زاد على ذلك، فمنهم من لم يزد، ومنهم من قال: [ومائتين وأربع آيات]، وقيل: [وأربع عشرة]، وقيل: [وتسع عشرة]، وقيل: [وخمساً وعشرين]، وقيل: [وستاً وثلاثين]، وقيل: [وستمائة وستة عشرة].

قال الأبياري: وأما مسألة البسملة: فقد قال مكي بن أبي طالب: إن الإجماع من الصحابة والتابعين [على] أنها ليست آية إلا من سورة النمل. وإنما اختلف القراء في إثباتها من أول الفاتحة خاصة، والإجماع قد حصل على ترك عدها آية من كل سورة، فما حدث بعد الإجماع من الصحابة والتابعين من قول منفرد محدث، فقوله مرفوض غير مقبول، وأيضا فقد أجمع أهل العدد من أهل الكوفة والبصرة والمدينة والشام على ترك عدها آية في أول كل سورة. فهذه حجة قاطعة، وإجماع ظاهر. وإنما اختلفوا في عدها وتركها في سورة الحمد، لا غير، فعدها آية الكوفي، والمكي، ولم يعدها آية، البصري، ولا الشامي والمدني. والاختلاف في أنها آية في الحمد مشهور في الصدر الأول، فقال جماعة منهم بذلك. فهو اختلاف كثير غير منكر[107].

وكان لأهل المدينة عددان: يعرف أحد هما بالأول، ويعرف الآخر بالأخير، ومعنى ذلك أن الذين تصدوا لعد الآي بالمدينة من أئمة القراء هم: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وأبو نصاح شيبة بن نصاح، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي، وإسماعيل بن جعفر بن كثير الأنصاري، وقد اتفق هؤلاء الأربعة على عدد وهو المسمى بالعدد

---

[104] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص74

[105] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص74

[106] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص77

[107] ينظر؛ علي بن إسماعيل الأبياري (ت ٦١٦ هـ)،التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه، تحقيق: علي بن عبد الرحمن بسام الجزائري، أستاذ بالمعهد الوطني العالي لأصول الدين – الجزائر، الناشر: دار الضياء - الكويت (طبعة خاصة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر)،الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، ج2، ص780-781

الأول، ثم خالفهم إسماعيل بن جعفر بعدد انفرد به وهو الذي يقال له العدد الثاني، وقد رأيت هذا ينسب إلى أيوب بن المتوكل البصري المتوفي سنة ٢٠٠، ولأهل مكة عدد واحد، وربما اتفقوا في عدد آي السورة المعينة، وربما اختلفوا، وقد يوجد اختلاف تارة في مصاحف الكوفة والبصرة والشام، كما نجد في «تفسير المهدوي» وفي كتب علوم القرآن، ولذلك تجد المفسرين يقولون في بعض السور عدد آياتها في المصحف الفلاني كذا، وقد كان عدد آي السور معروفاً في زمن النبي ﷺ[108].

2)- الفواصل:

يقول ابن عاشور في تعريفها: والذي استخصلته أنّ الفواصل: هي الكلمات التي تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب، مع تماثل أو تقارب صيغ النطق بها، وتكرر في السّورة تكرراً يؤذن بأنّ تماثلها أو تقاربها مقصود من النظم في آياته كثيرة متماثلة، تكثر وتقل، وأكثرها قريب من الأسجاع في الكلام المسجوع، والعبرة فيها بتماثل صيغ الكلمات من حركات وسكون، وهي أكثر شبهاً بالتزام ما لا يلزم في القوافي، وأكثرها جارٍ على أسلوب الأسجاع، والذي استخلصته أيضا أن تلك الفواصل كلها منتهى آيات، ولو كان الكلام الذي تقع فيه لم يتم فيه الغرض المسوق إليه، وأنه إذا انتهى الغرض المقصود من الكلام ولم تقع عند انتهائه فاصلة لا يكون منتهى الكلام نهاية آية إلا نادرا كقوله تعالى: [ص والقرآن ذي الذكر] [ص: ١] ، فهذا المقدار عدّ آية وهو لم ينته بفاصلة، ومثله نادر، فإن فواصل تلك الآيات الواقعة في أول السّورة أقيمت على حرف مفتوح بعد ألف مد بعدها حرف، مثل: شقاق، مناص، كذاب، عجاب... فلو انتهى الغرض الذي سيق له الكلام، وكانت فاصلة تأتي بعد انتهاء الكلام تكون الآية غير منتهية ولو طالت، كقوله تعالى: قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى قوله: وخر راكعا وأناب [ص: ٢٤] ، فهذه الجمل كلها عدت آية واحدة[109].

3)- سور القرآن

السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام، ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشيء عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة[110]، وكونها تشتمل على ثلاث آيات مأخوذ من استقراء سور القرآن مع حديث عمر فيما رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «أَتَى الْحَارِثُ بْنُ خَزَمَةَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ (بَرَاءَةٌ) {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة: ١٢٨] إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ: مَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، وَاللَّهِ إِنِّي أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَعَيْتُهَا وَحَفِظْتُهَا، فَقَالَ عُمَرُ: "وَأَنَا أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ثُمَّ قَالَ: "لَوْ كَانَتْ ثَلَاثَ آيَاتٍ لَجَعَلْتُهَا سُورَةً عَلَى حِدَةٍ، فَانْظُرُوا سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَضَعُوهَا فِيهَا، فَوَضَعْتُهَا فِي آخِرِ سُورَةِ (بَرَاءَةٌ)"[111]، فدل على أن عمر ما قال ذلك إلا عن علم بأن ذلك أقل مقدار سوره[112]، ووجه تسمية الجزء المعين من القرآن [سورة] قيل: مأخوذة من [السُّور] بضم السين وتسكين

---

[108] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص78

[109] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص76

[110] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص84

[111] أخرجه الهيثمي عن عباد بن عبد الله بن الزبير، ينظر؛ أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة،: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م، ج7، ص35، رقم الحديث: 11059، وقال: رواه أحمد، وفيه ابن إسحق [وهو مدلس]، و بقية رجاله ثقات

[112] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص84

الواو وهو: "الجدار المحيط بالمدينة" أو "بمحلة قوم"، زادوه هاء تأنيث في آخره مراعاة لمعنى القطعة من الكلام، كما سموا الكلام الذي يقوله القائل خطبة أو رسالة أو مقامة. وقيل: مأخوذة من [السُّؤْر] بهمزة بعد السين؛ وهو "البقية مما يشرب الشّارب"؛ بمناسبة "أن السؤر جزء مما يشرب"، ثم خففوا الهمز بعد الضّمة فصارت واواً[113].

[113] يرجع: التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص85

المحاضرة الخامسة: القصة القرآنية، خصائصها، أهدافها.

أولاً: مفهوم القصة لغة

(قصّ) القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء، من ذلك قولهم: اقتصَصْتُ الأثر، إذا تتبعته، ومن ذلك اشتقاق القَصَاص في الجراح، وذلك أنه يفعل به مثل فعله بالأول، فكأنه اقتصَّ أثره، ومن الباب القِصّة والقَصَص، كل ذلك يتَتبع فيذكر، وأما الصدر فهو: القَصُّ، وهو عندنا قياس الباب؛ لأنه متساوي العظام، كأنّ كل عظم منها يتبع للآخر، ومن الباب: قَصَصْتُ الشَّعَر، وذلك أنك إذا قصصته فقد سوَّيت بين كل شَعَرة وأختها، فصارت الواحدة كأنها تابعة للأخرى مساوية لها في طريقها، وقِصَاص الشّعَر: نهاية منبته من قدم، وقياسه صحيح، والقصة: النّاصية، [و] القصيصية من الإبل: البعير يقصّ أثر الركاب، وقولهم: ضرب فلان فلاناً فأقصَّه، أي أدناه من الموت؛ وهذا معناه أنه: يقصُّ أثر المنية، وأقص فلاناً السلطان [من فلان]، إذا قتله قوداً[114].

ثانياً: مفهوم القصة اصطلاحاً

القصة في القرآن: والقصة: الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل: ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم، وجمع القصة قِصَص [بكسر القاف]، وأما القَصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص، وهو مصدر سُمي به المفعول، يقال: قَصّ علي فلان إذا أخبره بخبر[115]، وقيل: هي خبر عن أمم سابقة، وهو خبر عن غيب ولا يمكن أن يعلمه إلا من أوتي سعة من علم، وجاء الوحي بها، لتأكيدها وإقرارها وتصحيحها، وما كان أهل الجاهلية يعلمون إلا القليل من أخبار الرسل والأمم، ولا بدّ أن ما علموه دخله التّحريف والتّزوير والتّشويه حتى أصبحت الحقيقة ضائعة، وجاء القرآن لكي يؤكد الواقعة، ويصحّح الحدث، ويشير إلى العبرة، ويقود الإنسان إلى أن يكتشف بنفسه ما أراده القرآن من حتمية انتصار الإيمان على الكفر، وانتصار الخير على الشر[116].

ثالثاً: خصائص القصة القرآنية

1)- حصول العبرة والموعظة الحسنة منها.

2)- تضمنّها لعواقب الخير أو الشر في مظان الاتّعاظ بها مع المحافظة على غرض القرآن الأصلي من تشريع وتفريع.

3)- إفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها.

4)- وجودها مفرّقة وموزعة على مقاماتٍ تناسبها.

5)- تحصيل فوائدها مرتبطٌ بتوزيعها وفق مقاماتِها يكسبها: صفة البرهان، صفة التبيان.

6)- نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص.

7)- تكرار القصّة وفق مناسباتٍ خاصّة؛ وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريراً لها؛ لأنّ سَبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى، كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيباً في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته

---

[114] ينظر؛ ابن فارس، مرجع سابق، ج5، ص11

[115] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص64

[116] ينظر؛ المدخل إلى علوم القرآن، مرجع سابق، ص53

السابقة: [إنه أعاد الخطبة]، بل إنه أعاد معانيها، ولم يعد ألفاظ خطبته، وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي، ثم تحصل معه مقاصد أخرى[117].

يقول ابن عاشور جامعاً لذلك: وأبصر أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصرا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل. إن في تلك القصص لعبرا جمة وفوائد للأمة ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها، من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها، لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه. وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها فكان أسلوبه قاضيا للوطرين وكان أجل من أسلوب القصاصين في سوق القصص لمجرد معرفتها؛ لأنّ سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين: صفة البرهان وصفة التبيان ونجد من مميزات قصص القرآن نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص، مثال ذلك قوله تعالى في سورة القلم: فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون فقد حكيت مقالته هذه في موقع تذكيره أصحابه بها لأن ذلك ممن حكايتها ولم تحك أثناء قوله: إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين [القلم: ١٧] وقوله: فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين [القلم: ٢٢][118].

رابعاً: أهداف القصّة القرآنية[119]

1)- التحدّي والإعجاز لعلماء أهل الكتاب.

تتضمن القصة القرآنية قصارى علم أهل الكتاب المتعلق بمعرفة أخبار الأنبياء وأيامهم، وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب،تحدياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم على المسلمين.

2)- تكلّل القصة القرآنية هامة التّشريع الإسلامي.

إن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلا لهامة التشريع الإسلامي.

3)- ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس، أو ضدّ ذلك.

ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر، قال تعالى: فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا [النمل: ٥٢] وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك.

4)- ابتكار أسلوب التوصيف والمحاورة .

---

[117] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص68

[118] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص65

[119] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص65 وما بعدها

أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهودا للعرب فكان مجيؤه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه.

5)- فتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية.

أنها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية كقوله تعالى: [كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله] [يوسف: ٧٦] .

المحاضرة السّادسة: سياقات النص القرآني: السياق السببي: أسباب النزول، السياق المكاني: المكي والمدني.

أولاً: [السياق] لغة

يذكر ابن الأثير [السّياق] في أفنان حديثه عن [السَّوق] الذي ذكره في قوله: «دخل سعيد على عثمان وهو في السَّوْقِ» أي في النّزع، كأنّ روحه تُسَاق لتخرج من بدنه؛ ويقال له: السِّياق أيضاً، وأصله سِوَاقٌ، فقلبت الواو ياء لكسرة السّين، وهما مصدران من سَاقَ يَسُوقُ[120]، قال ابن فارس: (سَوُقَ) السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ حَدْوُ الشَّيْءِ، يُقَالُ سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا، وَالسَّيِّقَةُ: مَا اسْتِيقَ مِنَ الدَّوَابِّ، وَيُقَالُ سُقْتُ إِلَى امْرَأَتِي صَدَاقَهَا، وَأَسَقْتُهُ، وَالسُّوقُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ هَذَا، لِمَا يُسَاقُ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْجَمْعُ أَسْوَاقٌ، وَالسَّاقُ لِلْإِنْسَانِ وَغَيْرُهُ، وَالْجَمْعُ سُوقٌ، إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْمَاشِيَ يَنْسَاقُ عَلَيْهَا. وَيُقَالُ امْرَأَةٌ سَوْقَاءُ، وَرَجُلٌ أَسْوَقُ، إِذَا كَانَ عَظِيمَ السَّاقِ. وَالْمَصْدَرُ السَّوَقُ[121]، ومن المجاز: ساق الله إليه خيراً؛ وساق إليها المهر، وساقت الريح السحاب، وأردت هذه الدار بثمن، فساقها الله إليك بلا ثمن، والمحتضر يسوق سياقاً، وفلان في ساقة العسكر: في آخره وهو جمع سائق كقادة في قائد، وهو يساوقه ويقاوده، وتساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و" إليك يساق الحديث " وهذا الكلام مساقةٌ إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده، وضرب البخور بكمه وقال: سوقاً إلى فلان، والمرء سيقه القدر: يسوقه إلى ما قدر له لا يعدوه[122].

والمتأمل في ما سبق من المعاني يلفته أنّ أغلب هذه التعاريفات تدور على معنى التتابع والتوالي، سواء كانت على وفق الإطلاق الحقيقي أم المجازي.

ثانياً: [السياق القرآني] اصطلاحاً

مصطلح [السّياق] من المصطلحات العصية على التّحديد الدّقيق بشكل متفق عليه بين المشتغلين بالعلوم الشّرعية واللغوية من علمائنا المتقدمين والمتأخرين، مع أنهم سبقوا علماء اللسانيات الحديثة من الغربيين [أصحاب النّظرية السّياقية في اللغة] في تحديد مفهومه والإفادة منه في تحديد دلالات النصوص ومقاصدها، وبيان أهميته بشقيه: المقالي؛ والمقامي، مما يدلّ على وعيهم التامّ[123]، لذلك وجدنا الإمام الشّافعي [رحمه الله] في القرن الثاني يبوّب رسالته ببابٍ سمّاه: "باب الصِّنْف الذي يُبَيِّن سياقُه معناه"[124]؛ ثم يسوقُ الأمثلة في هذا الباب قصد بيان دلالة السّياق على المعنى، ومع ذلك اختلف كثير من الباحثين في التعريف الاصطلاحي لهذا المركب على أقوال أهمها[125]:

---

[120] ينظر؛ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود مُحَمَّد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج2، ص424

[121] ينظر؛ معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج3، ص117

[122] ينظر؛ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ج1، ص484

[123] ينظر؛ ياسر عتيق مُحَمَّد علي، مقال: الدّلالة السياقية ونظائرها عند الأصوليين وأهميتها في فهم مقصود الخطاب، مجلة الدّراسات الاجتماعية، جامعة العلوم والتكنولوجيا، الرياض، العدد: 35، ديسمبر 2012، ص286

[124] ينظر؛ مُحَمَّد بن إدريس الشافعي (١٥٠ هـ - ٢٠٤ هـ)، الرسالة، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م، الناشر: مصطفى البابي الحلبي وأولاد – مصر، ص62

[125] ينظر؛ عبد الرحمن عبد الله سرور جرمان المطيري، السّياق القرآني وأثره في التّفسير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1429هـ - 2008م، ص64

القول الأول: يرى بعض الباحثين أنّ دلالة [السّياق القرآني] مقصورة على المقال دون الحال، وهو ما يسمّيه أهل اللغة بـ[السّياق اللّغوي]

القول الثاني: يرى بعض الباحثين أنّ دلالة [السّياق القرآني] تشمل المقال المتمثل بالسّباق واللّحاق، وتشمل الحال [المقام] فتكونُ بهذا الاعتبار على قسمين:

1* سياق المقال: ويعنون به السّباق واللّحاق.

2* سياق الحال: [المقام] ويعنون به ما يصاحب النصّ من أحوال وعوامل خارجية لها أثر في فهمه كحال المتكلّم، المخاطب، الغرض الذي سيق له... إلخ.

ويعرّف السّياق القرآني وفق هذا الاعتبار بقولهم: بيان اللّفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السّابق واللاحق[126].

ثالثاً: السّياق السببي [أسباب النزول]

1)- تعريف أسباب النزول: وهي حوادث يروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها؛ لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، و قد أغرب في تطلبها كثير من المفسرين وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم النّاس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا، بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها، ونجد لبعض الآي أسباباً ثبتت بالنقل، دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائراً بين القصد والإسراف، وكان في غضّ النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن[127].

2)- تخصيص [سبب النزول] من عدمه:

ذهب جمهور العلماء إلى أنّ سبب النزول لا يخصّص، وادّعت طائفة شاذّة منهم التخصيص، ولو أن أسباب النزول كانت كلها متعلقة بآيات عامّة لما دخل من ذلك ضرّ على عمومها إذ قد أراحنا أئمة الأصول حين قالوا: [العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب]، ولكن أسباباً كثيرة رام رواتها تعيين مراد من تخصيص عام أو تقييد مطلق أو إلجاء إلى مجمل، فتلك هي التي قد تقف عرضة أمام معاني التفسير قبل التنبيه على ضعفها أو تأويلها[128]، وقد قال الواحدي في أول كتابه: "وأما اليوم فكلّ أحد يخترع شيئاً، ويختلق إفكاً وكذباً ملقياً زمامه إلى الجهالة، غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب نزول الآية، وذلك الذي حدا بي إلى إملاء هذا الكتاب الجامع للأسباب، لينتهي إليه طالبوا هذا الشأن والمتكلمون في نزول القرآن، فيعرفوا الصدق ويستغنوا عن التمويه والكذب ويجدوا في تحفظه بعد السماع والطلب"[129].

3)- مراتب أسباب النزول:

أسباب النزول على أربعة مراتب[130]:

المرتبة الأولى: ما ليس المفسّر بغنىً عن علمه؛ لأنّ فيها بيانُ مجمل، أو إيضاحُ خفيّ وموجز.

---

[126] ينظر؛ عبد الحكيم بن عبد الله القاسم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير،دار التدمرية، دط، دت، ص6

[127] يرجع؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص46

[128] يرجع؛ المرجع نفسه، ج1، ص46-47

[129] ينظر؛ أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، أسباب نزول القرآن، المحقق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م، ص9

[130] تستخلص هذه المراتب من أفنان حديث ابن عاشور حول مسألة أسباب النزول، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص47

المرتبة الثانية: ما يكون وحده تفسيراً.
المرتبة الثالثة: ما يدلُّ المفسّر على طلب الأدلة التي بها تأويل الآية أو نحو ذلك.
المرتبة الرابعة: ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات.

4)- أقسام أسباب النزول[131]:

القسم الأول: هو المقصود من الآية يتوقف فهم المراد منها على علمه فلا بد من البحث عنه للمفسر، وهذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى: [قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها] [المجادلة: ١١] ، ونحو: [يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا] [البقرة: ١٠٤] ومثل بعض الآيات التي فيها: [ومن الناس] [البقرة: ٨]، يدخلُ هذا القسم تحت المرتبة الأولى من مراتب أسباب النزول [ما ليس المفسّر بغنىً عن علمه؛ لأنّ فيها بيانُ مجمل، أو إيضاحُ خفيّ وموجز] فلا بدّ للمفسر من البحث عنه حتى يفهم المراد من الآية.

القسم الثاني: هو حوادث تسببت عليها تشريعات أحكام، وصور تلك الحوادث لا تبين مجملاً، ولا تخالف مدلول الآية بوجه تخصيص أو تعميم أو تقييد، ولكنها إذا ذكرت أمثالها وجدت مساوية لمدلولات الآيات النازلة عند حدوثها، مثل حديث عويمر العجلاني الذي نزلت عنه آية اللعان[132]، ومثل حديث كعب بن عجرة الذي نزلت عنه آية: [فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام] [البقرة: ١٩٦] الآية؛ فقد قال كعب بن عجرة: "فيَّ نزلت هذه الآية: {فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه} وقع القمل في رأسي فذكرت ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم – فقال ﷺ: " احلق وافده صيام ثلاثة أيام، أو النسك، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين صاع"[133]، ومثل قول أم سلمة [رضي الله عنها]: "يا رسول الله تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث"، فأنزل الله تعالى[134]: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض}، وهذا القسم لا يفيد البحث فيه إلا زيادة تفهم في معنى الآية وتمثيلا لحكمها، ولا يخشى توهم تخصيص الحكم بتلك الحادثة، إذ قد اتفق العلماء أو كادوا على أن سبب النزول في مثل هذا لا يخصّص، واتفقوا على أن أصل التشريع أن لا يكون خاصاً[135].

القسم الثالث: هو حوادث تكثر أمثالها تختص بشخص واحد فنزلت الآية لإعلانها وبيان أحكامها وزجر من يرتكبها، فكثيراً ما تجد المفسرين وغيرهم يقولون: "نزلت في كذا وكذا"، وهم يريدون أنّ من الأحوال التي تشير إليها تلك الآية تلك الحالة الخاصة فكأنهم يريدون التمثيل، مثل الآيات النازلة في المنافقين في سورة براءة المفتتحة بقوله تعالى: [ومنهم] [التوبة: ٥٨] ، ولذلك قال ابن عباس: كنا نسمي سورة التوبة سورة الفاضحة، وهذا القسم قد أكثر من ذكره أهل القصص وبعض المفسرين ولا فائدة في ذكره، على أن ذكره قد يوهم القاصرين قصر الآية على تلك الحادثة لعدم ظهور العموم من ألفاظ تلك الآيات.

القسم الرّابع: هو حوادث حدثت وفي القرآن تناسب معانيها سابقة أو لاحقة، فيقع في عبارات بعض السلف ما يوهم أن تلك الحوادث هي المقصود من تلك الآيات، مع أن المراد أنها مما يدخل في معنى الآية، ويدل لهذا النوع وجود اختلاف كثير بين الصحابة في كثير من أسباب النزول كما هو مبسوط في المسألة الخامسة من بحث

---

[131] يرجع تفصيلها كاملاً عند ابن عاشور حول مسألة أسباب النزول، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص48 وما بعدها

[132] أخرجه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع،ج6، ص2663 رقم الحديث: 6874

[133] ينظر؛ أسباب نزول القرآن،مرجع سابق، ص59

[134] ينظر؛ المرجع نفسه، ص150

[135] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص48

أسباب النزول من «الإتقان» ومن أمثلته[136]: ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبله بضعة عشر شهرا - وكان يحب قبلة إبراهيم - فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله: {فولوا وجوهكم شطره} فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله: {قل لله المشرق والمغرب} وقال: {فأينما تولوا فثم وجه الله}.

القسم الخامس: قسم يبين مجملات ويدفع متشابهات مثل قوله تعالى: [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [المائدة: ٤٤] فإذا ظن أحد أن [مَن] للشرط أشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفراً؟ ثم إذا علم أن سبب النزول: "هم النصارى"، علم أنّ [مَن] موصولة، وعلم أنّ الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجب منهم أن يكفروا بسيدنا مُحَمَّد ﷺ.

5)- المقاصد من معرفة أسباب النزول:

أ* يحقّق العلم بأسباب النزول للأمة وعي دينها، ولعلمائها مزية الاستنباط

إنّ القرآن كتاب جاء لهدي أمة والتشريع لها، وهذا الهدي قد يكون وارداً قبل الحاجة، وقد يكون مخاطباً به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غيرهما، وقد يكون مخاطباً به جميع من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية، والحكمة في ذلك: أن يكون وعي الأمة لدينها سهلا عليها، وليمكن تواتر الدين، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط، وإلا فإن الله قادر أن يجعل القرآن أضعاف هذا المنزل، وأن يطيل عمر النبي صلى الله عليه وسلم للتشريع أكثر مما أطال عمر إبراهيم وموسى، ولذلك قال تعالى: [وأتممت عليكم نعمتي] [المائدة: ٣]، فكما لا يجوز حمل كلماته على خصوصيات جزئية؛ لأن ذلك يبطل مراد الله، كذلك لا يجوز تعميم ما قصد منه الخصوص، ولا إطلاق ما قصد منه التقييد؛ لأن ذلك قد يقضي إلى التخليط في المراد أو إلى إبطاله من أصله[137].

ب* أسباب النزول فيها دلالة على إعجاز القرآن من ناحية الارتجال

وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين[138].

6)- القواعد المتعلقة بأسباب النزول:

قاعدة (1): القول في الأسباب متوقّف على النقل والسماع.

قاعدة (2): سبب النزول له حكم الرّفع.

قاعدة (3): نزول القرآن تارة يكون مع تقرير الحكم، وتارة يكون قبله، والعكس.

قاعدة (4): الأصل عدم تكرار النزول.

قاعدة (5): قد يكون سبب النزول واحداً والآيات النازلة متفرّقة والعكس.

قاعدة (6): إذا تعدّدت المرويات في سبب النزول، نُظر إلى الثبوت، فاقتصر على الصّحيح، ثم العبارة: فاقتصر على الصّريح، فإن تقارب الزمان حُمل على الجميع، وإن تباعدَ حكم بتكرار النزول أو الترجيح[139].

---

[136] ينظر؛ الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص118-119

[137] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص50

[138] ينظر؛ المرجع نفسه، ج1، ص50

[139] ينظر؛ خالد بن عثمان السبت، مختصر في قواعد التفسير، دار ابن القيم- دار ابن عفان، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ ، ص5

رابعاً: السياق المكاني (المكي/ المدني)

1)- تعريف القرآن المكي والقرآن المدني

للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية؛ كلّ رأي منها بني على اعتبار خاص[140]:

الرأي الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة أو عرفة: مدني، كالذي نزلَ عام الفتح، كقوله تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها}، فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}، وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده، أخرج عثمان ابن سعد الرازي بسنده إلى يحي بن سلام قال: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحا[141].

الرأي الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها: كمنى وعرفات والحديبية، والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأُحُد وقباء وسلع.

الرأي الثّالث: اعتبار المخاطب؛ فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة، وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أنّ ما في القرآن من قوله تعالى: {يا أيها الناس} مكيّ، وما فيه من قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} مدني، وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تفتتح بأحد الخطابين، وأن هذا الضّابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية، وفيها: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون}، وقوله تعالى: {يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين}، وسورة النساء مدنية وأولها: {يا أيها الناس}، وسورة الحج مكية؛ وفيها: {يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون}، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار والازدياد منها.

وعليه يكون الراجح من هذه التعريفات الثلاثة هو التعريف الأول للأسباب الآتية[142]:

١ -أنه ضابط وحاصر ومطرد لا يختلف، واعتمده العلماء واشتهر بينهم.

٢- أن الاعتماد عليه يقضي على معظم الخلافات التي أثيرت حول تحديد المكي والمدني.

٣ -أنه أقرب إلى فهم الصحابة -رضي الله عنهم- حيث إنهم عدوا من المدني سورة التوبة، وسورة الفتح وسورة المنافقون، ولم تنزل سورة التوبة كلها بالمدينة، فقد نزل كثير من آياتها على رسول الله -ﷺ- وهو في طريق عودته من تبوك، ونزلت سورة الفتح على النبي -ﷺ- وهو عائد من صلح الحديبية، ونزلت سورة المنافقون عليه، وهو في غزوة المصطلق.

2)- أهمية العلم بالمكي والمدني:

---

[140] ينظر؛ مناع القطّان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص60 وما بعدها

[141] ينظر؛ الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص37

[142] ينظر؛ محمّد شفاعت رباني، المكي والمدني، دط، دت، ص6

1)* تعين على العلم بالناسخ والمنسوخ في باب الأحكام الشّرعية؛ قال الرّازي: "ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء، وإنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة"[143].

2)* يعين العلم بالمكي والمدني على معرفة تاريخ التشريع الإسلامي ومراحله

أخرج الإمام البخاري عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك وما يضرك. قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: [لا تشربوا الخمر]، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: [لا تزنوا]، لقالوا: لا ندع الزّنا أبداً، لقد نزل بمكة على مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر}، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السّورة[144]، قال القرطبي في ما ينبغي لحامل القرآن: "وينبغي له أن يعرف المكي من المدني ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره. فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكي المدني، لأنّ المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل الناسخ له"[145].

3)- القواعد التفسيرية المتعلقة بمكان النزول [المكي والمدني][146]:

قاعدة (1): إنما يعرف المكي والمدني بنقلٍ من شاهدوا التنزيل.

قاعدة (2): المدني من السور يكون منزلاً في الفهم على المكي، وكذا المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل.

4)- خصائص القرآن المكي[147]

١ - الدعوة إلى التوحيد، وإثبات الرسالة، وإثبات اليوم الآخر، والوعد والوعيد، وجدال المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية.

٢ - وضع القواعد العامة للتشريع في الحلال والحرام، والتركيز على تثبيت مكارم الأخلاق كالعدل والإحسان، وإبطال ما ينافيها من مساوئ الأخلاق كالظلم والفجور والأذى مما كان يفعله أهل الجاهلية.

٣ - ذكر قصص الأنبياء والأمم السالفة للعبرة والقياس، وتثبيت النبي ﷺ والمؤمنين.

٤ - قصر الفواصل بين الآي، مع قوة الوقع في الألفاظ والإيجاز في العبارة.

5)- خصائص القرآن المدني[148]

---

[143] ينظر؛ أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير،دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ، ج19، ص59

[144] ينظر؛ أخرجه البخاري في صحيحه، ينظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، ج4، ص1910، رقم الحديث: 4707

[145] ينظر؛ الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج1، ص21

[146] ينظر؛ مختصر في قواعد التفسير، مرجع سابق، ص6

[147] ينظر؛ عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، مركز البحوث الإسلامية ليدز – بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م، ص58 وما بعدها

[148] ينظر؛ المرجع نفسه، ص60

١ - تفصيل العبادات والمعاملات والحدود وقانون الدولة الإسلامية وسائر شرائع الإسلام مما يتناسب التكليف به مع واقع التمكن للمجتمع المسلم.
٣ - الكشف عن حقيقة النفاق وشرح صفات المنافقين وأحوالهم.
٤ - طول الآيات بما يتناسب مع الشرح والبيان لشرائع الإسلام.

6)- حصر السّور المكية

أ* السّور المكية اتّفاقاً:

الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، سبأ، فاطر، يس، الصافات، ص، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، الذاريات، الطور، النجم، القمر، الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، القارعة، الهمزة، الفيل، قريش، الكافرون، المسد، هذه السور لا يكاد يختلف في شيء منها أنها مكية[149].

ب* ما اختُلف فيها والرّاجح أنها مكيّة:

الفاتحة، الرعد، الحج، الرحمن، الواقعة، التغابن، الإنسان، الزلزلة، العاديات، التكاثر، العصر، الماعون، الكوثر، الإخلاص[150].

7)- حصر السّور المدنية اتّفاقاً

أ* السور المدنية اتّفاقاً

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، مُحَمَّد ﷺ، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، البينة، النصر، هذه السور لا يوجد اختلاف معتبر في كونها مدنية[151].

ب* ما اختُلف فيها والرّاجح أنها مدنية:

المطففين، الفلق، الناس[152].

---

[149] ينظر؛ المرجع السابق، ص63
[150] ينظر؛ المرجع نفسه، ص64
[151] ينظر؛ المرجع نفسه، ص64
[152] ينظر؛ المرجع نفسه، ص64

أولاً: معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

التعبير عن تلقي رسول الله -ﷺ- للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة يلمسها المرء في تصوُّر كل هبوط من أعلى، ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التي حولت مجرى حياة البشرية وأحدثت فيها تغيراً ربط السّماء بالأرض، ووصل الدنيا بالآخرة، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي في مصدره الأول والأصيل -وهو القرآن- تعطي الدّارس صورة عن التدرج في الأحكام ومناسبة كلّ حكم للحالة التي نزل فيها دون تعارض بين السّابق واللاحق، وقد تناول هذا أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تشريع من تعاليم الإسلام، كالأطعمة، والأشربة، والقتال ... ونحو ذلك، وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل كذلك أقوال[153]، ومعرفة ذلك علم توقيفي يعتمد على النقل عن الصحابة أو التابعين ولا مجال للاجتهاد فيه إلا للترجيح بين الأدلة والنقول، ويرجع الاختلاف في معرفة أول ما نزل ومعرفة آخر ما نزل إلى أنَّ: صاحب كل قول يخبر عن حد علمه أو عما بلغه من الدّليل، أو أنه أراد أولية مخصوصة ففهمت على غير ما أراد ونحو ذلك، وبحث العلماء أول وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، وأول وآخر ما نزل في معاني خاصة كأول وآخر ما نزل في الأطعمة، وأول وآخر ما نزل في الأشربة، وأول وآخر ما نزل في الخمر، وأول وآخر ما نزل في القتال، وأول وآخر ما نزل في الربا، وأول وآخر سورة نزلت كاملة وغير ذلك[154].

ثانياً: أقوال العلماء في أول ما نزل من القرآن

للعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق أقوال[155]:

القول الأول: إن أول ما نزل من القرآن "صدر سورة إقرأ"[156]، وهو قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم} وهذا القول أصح الأقوال وأرجحها، ومن أدلته: ما أخرجه البخاري في صحيحه: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد، الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: (فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ،

---

[153] ينظر؛ مناع القطان، مباحث في علم القرآن، مرجع سابق، ص65

[154] ينظر؛ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، الطبعة الثانية عشرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص227

[155] ذكر الزركشي في أول ما نزل من آي القرآن مطلقاً ثلاثة أقوال وهي: أوائل سورة العلق، سورة المدثر، سورة الفاتحة، وجمع بين الأول والثاني، وذكرها كذلك السيوطي مصحّحاً أوليّة مطلع سورة العلق، وزاد قولاً رابعاً حكاه ابن النقيب المقدسي في مقدمة تفسيره وهو (بسم الله الرحمن الرحيم)، و ردّه بقوله: "وعندي أنّ هذا لا يعدُّ قولاً برأسه، فإنه بالضرورة نزول السورة نزول البسملة معها، فهي أول آية نزلت على الإطلاق)، ثم ذكر الزركشي أول ما نزل للرسالة، والنبوة، وللإذن بالقتال؛ وهي أوائل مقيدة، وذكر أول ما نزل من السور، وقدّم قول الباقلاني في الجمع بين هذه الأقوال؛ يرجع: علوم القرآن بين البرهان والإتقان، مرجع سابق، ص172

[156] فائدة: قال الحنابلة: يستحب أن يبتدئ التراويح في أول ليلة بسورة القلم: {اقرأ باسم ربك} بعد الفاتحة لأنها أول ما نزل من القرآن، فإذا سجد للتلاوة قام فقرأ من البقرة نص عليه أحمد، والظاهر أنه قد بلغه في ذلك أثر، وعنه: أنه يقرأ بسورة القلم في عشاء الآخرة من الليلة الأولى من رمضان، يرجع: الكتاب: الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الطبعة من (١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ)، ج27، ص148

فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق - حتى بلغ - علم الإنسان ما لم يعلم}. فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، فقال: (زمّلوني زمّلوني). فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوع، فقال: (يا خديجة، ما لي). وأخبرها الخبر، وقال: (قد خشيت على نفسي). فقالت له: كلاّ، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدُق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ياليتني فيها جذعاً، أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: (أوَ مخرجي هم؟) فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ، فيما بلغنا، حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل، فقال: يا مُحَمَّد، إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جَأشُه، وتقرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك[157].

القول الثاني: أول ما نزل سورة المدّثر، واستدلوا بما رواه البخاري في صحيحه سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن، عن أول ما نزل من القرآن، قال: {يا أيها المدثر}. قلت: يقولون: {اقرأ باسم ربك الذي خلق}. فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: (جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت أمامي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فرأيت شيئا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماءً بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماءً بارداً، قال: فنزلت: {يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر})[158]، وأجيب عن هذا الحديث: ١- أن المراد بالأولية في هذا الحديث محمول على أولية مخصوصة وليست أولية مطلقة؛ فيحتمل[159]:

أ- أن المراد أول سورة نزلت بعد فترة الوحي.

ب- أن أول ما نزل للنبوة سورة اقرأ وللرسالة سورة المدثر.

ج- أن المدثر أول سورة كمل نزولها أي أن باقيها نزل قبل نزول بقية سورة اقرأ وغيرها.

وجمع بعضهم بينهما بأن جابراً سمع النبي ﷺ يذكر قصة بدء الوحي فسمع آخرها ولم يسمع أولها فتوَّهم أنها أول ما نزلت وليس كذلك، نعم هي أول ما نزل بعد سورة: {اقرأ} وفترة الوحي لما ثبت في الصحيحين أيضا عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يحدث عن فترة الوحي قال في حديثه: "بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه فرقا فرجعت فقلت زملوني زملوني" فأنزل الله تبارك وتعالى {يا أيها المدثر قم فأنذر} فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الذي جاءه بحراء قبل هذه المرة وأخبر في حديث عائشة أن نزول: {اقرأ} كان في غار حراء وهو أول وحي

---

[157] أخرجه البخاري في صحيحه، ينظر، صحيح البخاري، مرجع سابق،كتاب التعبير، باب: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصّالحة، ج6، ص561، رقم الحديث: 6581

[158] أخرجه البخاري في صحيحه، ينظر؛ صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدّثر، ج4، ص١٨٧٤، رقم الحديث:4638

[159] يرجع: دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص230

ثم فتر بعد ذلك وأخبر في حديث جابر أن الوحي تتابع بعد نزول {يا أيها المدثر} فعلم بذلك أن: {اقرأ} أول ما نزل مطلقا وأن سورة المدثر بعده وكذلك قال ابن حبان في صحيحه: "لا تضاد بين الحديثين، بل أول ما نزل اقرأ باسم ربك الذي خلق بغار حراء فلما رجع إلى خديجة رضي الله عنها وصبّت عليه الماء البارد أنزل الله عليه في بيت خديجة {يا أيها المدثر} فظهر أنه لما نزل عليه: {اقرأ} رجع فتدثر فأنزل عليه {يا أيها المدثر}[160] .

القول الثالث: أول ما نزل سورة الفاتحة؛ استدلوا بما رواه البيهقي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل «أن رسول الله ﷺ قال لخديجة إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً، فقالت معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فو الله إنك لتؤدي الأمانة، أو تصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ، ثم ذكرت خديجة حديثه له وقالت: يا عتيق اذهب مع مُحَمَّد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، فقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصا عليه، فقال إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا مُحَمَّد، يا مُحَمَّد، فأنطلق هارباً في الأرض، فقال: لا تفعل فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا مُحَمَّد قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين. حتى بلَغَ: ولا الضالين؛ قل لا إله إلا الله"، فأتى ورقة فذكر ذلك له فقال له ورقة أبشر، ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك، فلما توفي ورقة، قال رسول الله ﷺ: لقد رأيت القسّ في الجنة عليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي، وصدقني- يعني ورقة"[161]، وقد نسب الزّمخشري هذا القول أكثر المفسّرين، وذكر أنّ الفاتحة أول سورة نزلت، فقال: "وأكثر المفسرين على أنّ الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم"[162]، وتابع قوله ابن عاشور بمزيد من التحقيق في تحريره فقال: "وقال كثير إنها أول سورة نزلت؛ والصّحيح أنه نزل قبلها: اقرأ باسم ربك [العلق: ١] وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقيل نزل قبلها أيضاً: ن والقلم [القلم: ١] وسورة المزّمّل، وقال بعضهم هي: أول سورة نزلت كاملة أي غير منجمة، بخلاف سورة القلم، وقد حقق بعض العلماء أنها نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها، وقد عدت في رواية عن جابر بن زيد السورة الخامسة في ترتيب نزول السور، وأياً ما كان فإنها قد سماها النبيء ﷺ فاتحة الكتاب وأمر بأن تكون أول القرآن"[163]، و قد أجاب البيهقي بعد روايته للحديث المذكور بقوله: "فهذا منقطع، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزلت عليه، اقرأ باسم ربك، ويا أيها المدثر، والله أعلم"[164]، وأجاب أبو بكر الباقلاني وهذا بأن الخبر المروي آنفاً منقطع غير متصل السّند، لأنه موقوف على أبي ميسرة،

---

[160] ينظر؛ البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص207

[161] أخرجه البيهقي في دلائل النبوة؛ ينظر: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، باب أول سورة نزلت من القرآن، ج2، ص159

[162] ينظر؛ محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري [ت ٥٣٨ هـ]، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، ج4، ص775

[163] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص136

[164] ينظر؛ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة، مرجع سابق، ج2، ص159-160

ورجح أثبت الأقاويل من خلاف الصحابة قول من قال: إنّ أول ما أنزل: (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ، وما يليه في القوة قول جابر، ومن قال أول ذلك (يا أيها المدثر)[165] .

[165] ينظر؛ مُحَمَّد بن الطيب بن مُحَمَّد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (ت ٤٠٣هـ)، الانتصار للقرآن، تحقيق: مُحَمَّد عصام القضاة، دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م، ج1، ص241

المحاضرة الثامنة: الناسخ والمنسوخ

1)- المعاني اللغوية:

أ* أصل مادّة (نسخ) عند ابن فارس

(نسخ) النّون والسّين والخاء أصلٌ واحدٌ، إلا أنه مختلف في قياسه، قال قوم: "قياسه رفع شيء وإثبات غيره مكانَه"، وقال آخرون: "قياسه تحويل شيء إلى شيء"، قالوا: النسخ: نسخ الكتاب، والنسخ: "أمر كان يعمل به من قبل ثم ينسخ بحادث غيره، كالآية ينزل فيها أمرٌ ثم تنسخ بآية أخرى"، و"كل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه". و"انتسخت الشمس الظلّ"، و"الشيب الشباب". و"تناسخُ الورثة: أن يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الإرث قائم لم يقسم". ومنه: "تناسخ الأزمنة والقرون"، قال السجستاني: "النسخ: أن تحول ما في الخلية من العسل والنحل في أخرى" قال: ومنه "نسخ الكتاب"[166].

ب* أصل لفظ (النسخ) عند السّدوسي

وذكر بعضهم أنّ معنى النسخ في اللغة مأخوذ من أحد ثلاثة أوجه بيانها كالآتي[167]:

أ* أن يكون مأخوذاً من قول العرب: [نسختُ الكتابَ]؛ إذا نقلتُ ما فيه ما فيه الى كتاب آخر، فهذا لم يغير المنسوخ منه إنما صار نظيراً له، أيْ نُسخة ثانية منه.

ب* أن يكون مأخوذاً من قول العرب: [نسختِ الشّمسُ الظلَّ]، إذا أزالته وحلّتْ محلَّه، وهذا المعنى هو الذى يدخل في موضوع ناسخ القرآن ومنسوخه.

ج* أن يكون مأخوذاً من قول العرب: [نسخت الرّيح الآثار]، إذا أزالتها فلم يبق منها عِوضٌ، ولا حلّت الريح محل الآثار.

ج* معاني لفظ (النسخ) عند الفقهاء

يطلق النسخ لغة على معنيين[168]:

الأول: الإزالة التي يراد بها: الانعدام، والإبطال، والمحو.

الثاني: النقل، والتحويل والتبديل.

أما النسخ بمعنى الإزالة التي هي على وجه الإعدام والإبطال فعلى قسمين:

أحدهما: إزالة إلى بدل؛ وهو أن يزيل شيء ويحل غيره محله.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها} [البقرة: 106]، قال ابن عاشور في تفسيره لبيان معنى النسخ في الآية: "فهو عبارة عن إزالة صورة أو ذات وإثبات غيرها عوضها، تقول نسخت الشمس الظلّ؛ لأن شعاعها أزال الظل وخلّفه في موضعه، ونسخ الظلّ الشمسَ كذلك؛ لأنّ خيال الجسم الذي حال بين الجسم المستنير وبين شعاع الشمس الذي أناره قد خلف الشعاع في موضعه، ويقال: نسخت ما في الخلية من النحل والعسل إلى خلية أخرى"[169].

---

[166] ينظر؛ معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج5، ص424-425

[167] ينظر؛ قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري (ت ١١٧ هـ)، الناسخ والمنسوخ، المحقق : حاتم صالح الضامن [ت ١٤٣٤ هـ]، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م، ص5-6

[168] يرجع؛ مُحَمَّد إبراهيم بن سركند، الأحكام الفقهية التي قيل فيها بالنسخ وأثر ذلك في اختلاف الفقهاء جمعاً ودراسة، الناشر: عمادة البحث العلمي - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠ م، ج1، ص53

[169] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص656

الثاني: الإزالة إلى غير بدل[170].

ومن أمثلته: قوله تعالى: {فينسخ الله ما يلقي الشيطان} [الحج 56] قال ابن عاشور في هذا المعنى اللغوي [الإزالة إلى غير بدل]: "وقد يطلق على الإزالة فقط دون تعويض، كقولهم "نسخت الريح الأثر".

وأضاف ابن عاشور معنيين آخرين هما: "إثبات المزيل"، و"مجرّد الإثبات"، قال ابن عاشور: "وعلى الإثبات لكن على إثبات خاصّ، وهو إثبات المزيل، وأما أن يطلق على مجرد الإثبات فلا أحسبه صحيحاً في اللغة، وإن أوهمه ظاهر كلام الراغب، وجعل منه قولهم [نسخت الكتاب] إذا خططت أمثال حروفه في صحيفتك إذ وجدوه إثباتاً محضاً، لكن هذا توهم؛ لأن إطلاق النسخ على [محاكاة حروف الكتاب] إطلاق مجازي بالصورة أو تمثيلية بتشبيه الحالة بحالة من يزيل الحروف من الكتاب الأصلي إلى الكتاب المنتسخ ثم جاءت من ذلك النسخة"[171].

---

[170] يرجع: الأحكام الفقهية التي قيل فيها بالنسخ وأثر ذلك في اختلاف الفقهاء، مرجع سابق، ج1، ص53

[171] ينظر؛ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص656

المحاضرة التاسعة: علم إعجاز القرآن

أولاً: نشأة علم إعجاز القرآن

عجز العرب مذ نزول القرآن الكريم على أن يأتوا بمثله، رغم ما ساق لهم القرآن من الحجج والأدلة والبراهين الداعية إلى التحدّي، والنبي ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه، وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهراً لهم النكير، زارياً على أديانهم، مسفهاً آراءهم وأحلامهم، حتى نبذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال، ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة. ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذولب، وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام، و وفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه: {ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون} وقال سبحانه: {وتنذر به قوما لدا}. فكيف كان يجوز - على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه، وأن يضربوا صفحاً، ولا يحوزوا الفلح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه، ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك على نفسه وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشا [لحكمنا] أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه، وهذا بين واضح لا يشكل على عاقل[172]، ثم استمرّ هذا الحالُ زمن الصّحابة [رضوان الله عليهم أجمعين] وكبار التابعين، وفي أواخر زمن التابعين كثر اختلاط العرب بالأمم الأخرى أيام الفتوحات، فضعُف اللسان العربي، وحينما ظهرت المذاهب الكلامية في أواخر القرن الثاني ظهر الكلام في إعجاز القرآن، في بيئة كلامية احتدم فيها الجدل، واستعرّت فيها الخصومة[173]، ثمّ بدأ بعد ذلك استقرار التواليف فيه.

ثانياً: العلّة في إعجاز القرآن

1* صرف الهمم عن المعارضة

ذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، وغير معجزة عنها؛ إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات[174].

2* تضمنه للغيبيات

وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه: {الم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين} , وكقوله سبحانه: {قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي باس شديد , ونحوهما من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها.

3* جمعه بين فصاحة اللفظ وصحّة المعاني وحسن النظم

ورجّح بعضهم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم،

---

[172] ينظر؛ أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هـ)، بيان إعجاز القرآن، المحقق: مُحَمَّد خلف الله، مُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م، ص22

[173] ينظر؛ محمود بن علي البعداني، إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التّحرير والتنوير، كرسي القرآن وعلومه، الإصدار الثالث، الطبعة الأولى، 1435هـ، ص21

[174] ينظر؛ بيان إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص22

وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن عصى- وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدّليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه[175].

ثالثاً: حركة التأليف في الإعجاز

المرحلة الأولى: مرحلة الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ضمن مؤلفاتٍ في علوم أخرى، ومما يدخل في هذه المرحلة من الكتب[176]:

1)* نظم القرآن؛ وهو من أهم المؤلفات، وأول ما أُلّف في هذا الفن، وإن كان مفقوداً، وغالب مؤلفات الجاحظ الأخرى فيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وإن كان الجاحظ في كثير من كتاباته يذكر مواضع من إعجاز القرآن في آياتٍ يتعرّض القول فيها، ليبين مقامها من البيان، فهو في كتابه "الحيوان" يذكر أنه جمع آياتٍ من القرآن يعرف مقامها في البيان، فهو يقول: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن ليعرف بها ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة، والألفاظ القليلة، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} [الواقعة: ١٩] وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل المدينة، وقوله -عز وجل- حين ذكر فاكهة أهل الجنة: {لا مقطوعة ولا ممنوعة} [الواقعة: ٣٣] ، جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني، وهذا الكتاب الذي أشار إليه لم يكشف في التراث الإسلامي، ولكنه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الإعجاز، كلما لمح بريق الإعجاز في آياته[177]. ولقد جاء من بعد نظم القرآن للجاحظ الذي كان رداً عملياً على كلام النظام الذي أدخله من الهند، وهو مذهب [الصرفة]، جاء بعده أول كلام واجه الصرفة في إعجاز القرآن، وهو كتاب "إعجاز القرآن" لأبي عبد الله مُحَمَّد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هجرية، أي: بعد موت الجاحظ بنحو ستين سنة، وهو صورة المجاوبة التي كانت دفعا لمذهب الصرفة الذي بلبل الأفكار، وكان بين ممانعة من الأكثرين، ومجاوبة من القلة، حتى صارت نادرة، وحتى طواه التاريخ وهو في هذا قد طرق باب البلاغة طرقاً قوياً، وأصل الأصول المشتقة من كلام العرب، ونظمها وطبقها على القرآن، وثبت في التطبيق أنه أعلاها، وهذا الكتاب يعد أصلاً بنى عليه، فقد شرحه عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ شرحا مطولاً، وأودع ذلك الشرح كتاباً سماه "المعتضد"، وله شرح آخر أصغر منه، وهكذا كل كاتب يقيم بناء يكمله من يجيء بعده، فالواسطي أكمل البناء الذي وضعه الجاحظ، أو بنى عليه، وترك لغيره أن يكمل البناء، وجاء عبد القاهر الجرجاني فبنى على ما وضع الواسطي، وكان كتابه دلائل الإعجاز قد أوفى على ما وضع الجاحظ والواسطي[178]، ثمّ جاء بعد ذلك أبو عيسى الرماني (ت386هـ) فوضع بناءً ثالثاً غير بناء الجاحظ والواسطي، ثم جاء الباقلاني (ت403هـ) فوضع كتابه [دلائل الإعجاز] فأخذ من كل الينابيع التي سبقته، أسس فيه لعلوم البلاغة من القرآن الكريم[179].

---

[175] ينظر؛ بيان إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص27-28

[176] ينظر؛ إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص24

[177] ينظر؛ مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤هـ)، المعجزة الكبرى القرآن، الناشر: دار الفكر العربي، ص63

[178] ينظر؛ المرجع نفسه، ص64

[179] يرجع؛ المرجع نفسه، ص65

2)- تأويل مشكل القرآن: وهو كتابٌ فريدٌ في بابه، بحث في مشكل القرآن الكريم، والشكوك التي تثار حوله، يقول صاحبه: «قد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة في اللحن، وفساد النظم، والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور ... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملا ما أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب، لأري المعاند موضع المجاز، وطريق الإمكان، من غير أن أحكم فيه برأي، أو أقضي عليه بتأويل، ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير، إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفته. وعلى إيمائهم حتى أوضحته، وزدت في الألفاظ ونقصت، وقدمت وأخرت، وضربت لذلك الأمثال والأشكال، حتى يستوي في فهمه السامعون»[180] .

المرحلة الثانية: مرحلة الرّسائل والمؤلفات الصّغيرة؛ ومما يدخل في هذه المرحلة:

1)* كتاب "إعجاز القرآن" للواسطي (ت306هـ)، وهو كتابٌ مفقود، لم يصل إلينا، إنما وصل ما ينبئ عنه في "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني.

2)* القول في بيان "إعجاز القرآن" للجاحظ

[180] ينظر؛ أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تأويل مشكل القرآن، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص04